الفصل الثالث والعشرون

نظريات أخرى فى الحياة والمعرفة
الحديقة والرواق

بينما كان العالم القديم ـ ومعه الثقافة اليونانية القديمة ، يقتربان من النهاية ـ كان هناك مفكرون كثيرون لم يقنعوا بما أسفر عنه الفكر من ثمرات أصبحت مقبولة فى الأكاديمية أو فى الليكيوم . وقد ظل العقل اليونانى يؤكد أصالته واستقلاله مع ما صار يغشى حياة الإغريق من صنوف الاضطراب والقلق السياسى والاقتصادى. وربما كان مما يعزى اليونان ، وهم يعانون آلامهم الروحية الأخيرة ـ أن يؤمنوا بأن أهم شىء فى الحياة ليس هو أن يملكوا ناصية القوة ، بل أن يعرفوا الحقيقة ويعملوا بمبادئ الفضيلة ؛ ولذلك كانوا متهيئين لأن يجهروا بأن على الإنسان أن يجعل الشأن الأعلى للمسائل الأساسية ، فتساءلوا : وما أصل العالم ، وما حقيقته ، وما غايته ، وبخاصة نحن بنى الإنسان ؟ ومتى كانت بداية العالم ، إن كانت له بداية ؟ وهل العالم مادى أو روحانى ؟ وما نحن بنى الإنسان ؟ من أين جئنا ، وإلى أين نحن صائرون ؟ ثم ما الحقيقة ؟ أمن الممكن أن تعرف ؟ وإذا كان يمكن أن تعرف ، فكيف نعرف أننا نعرف؟ هل نستطيع أن نعرف العالم ومكاننا فيه ؟ وما الفضيلة ؟ وهل يمكن أن نصل إليها . . . ؟

فيما تقدم من هذا الكتاب نظرنا فى الإجابات التى أجاب بها بعض الفلاسفة ، وبخاصة أرسطو وأفلاطون ، عن هذه الأسئلة الحائرة . ولكن غيرهما من الفلاسفة اقترحوا إجابات أخرى ، ننظر فيها الآن . وأهم ما ينبغى ألا يغرب عن البال أن هذه الأسئلة ليست مجرد أسئلة تبحث فى مجالس العلم . ولا هى أسئلة فارغة لا يظفر الإنسان من ورائها بطائل . على أننا ربما اعتبرناها كذلك ، ولكن هذا

إنما يجيء من أننا — قد فقدنا كل إحساس بقيم الأشياء . فأصبحنا كملاحين ضاعت منهم « البوصلة » أو انكسرت ، أو تبينوا أن سفينتهم صارت لاتستجيب للدفة .

إن هذه الأسئلة لم تكن عند اليونان مجرد أسئلة من شأنها أن تبحث فى مجالس العلم بل كانت أسئلة حيوية وأشد إلحاحاً من نوع آخر من الأسئلة مثل من هو الملك أو المدير ؟ كيف ندفع الإيجار فى الشهر القادم ؟ هل نستحق نحن أنفسنا أن نكون سعداء أولا نستحق ؟ ؟ فلنسائل إذن هؤلاء الرجال الجادين! وهم ينتمون إلى المدارس أو الفرق الآتية :

الكلبيون . المتشككون ؛ اليوهيرميون ، الأبيقوريون ؛ الرواقيون .

الكلبيون The Cynics

كانت مدرسة الكلبيين أقدم من عصر أرسطو بكثير ، ويمكن تتبع أصلها حتى تنتهى إلى سقراط (ولا شك أنه كان فى نظرة سقراط للأشياء وفى طريقته فى الحياة شىء من نزعات الكلبيين) . والذى يعتبر فى العادة مؤسس هذه الفرقة هو انتستنيس . وكان من تلامذة سقراط الذين أخذوا عنه مباشرة . أبوه أثينى . أما أمه فكانت من تراقيا ، ولذلك تعلم فى مدرسة كينوسارجيس Cynosarges وكانت خارج أثينا موقوفة على هركليس . مخصصة لمن ليسوا من أصل أثينى خالص . وقد علم هو أيضاً فى تلك المدرسة . وقيل إن اسم مذهبه مشتق من اسم كينوسارجيس . وهذا جائز ، غير أن الأرجح هو أن تكون كلمة « كلبى » مشتقة من أحد الأصول التى اشتق منها اسم مدرسة كينوسارجيس (كلب = cyon, cyons) ، وعلى هذا يكون معنى الكلمة . فى الأصل هو : « ما يشبه الكلب » . وذلك لأن انتستنيس غلا فيما كان يميل إليه سقراط من العيش على أبسط صورة . ومن اطراح كثير من الاعتبارات الاجتماعية وأساليب الرفاهية التى تواضع عليها الناس .

لايعرف تاريخ مولد انتستنيس ولا تاريخ وفاته . على أنه لما كان تلميذاً

لجورجياس ولسقراط فلابدأنه كان ما يزال فتى فى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. وأشهر تلاميذه هو ديوجنيس السينوبى[١] Diogenes of Sinope الذى صار غلوه فى الزهد مضرب المثل . وكان والد ديوجنيس يتولى دار سك النقود فى سينوب ، ثم وقع فى متاعب . لأنه اتهم بتزييف العملة . وسواء أكانت جريمته شخصية أم سياسية فإنه اضطر إلى الخروج من سينوب[٢] . وعاش هو وابنه ديوجنيس فى فقر شديد . فكان من شأن الفلسفة التى يعلمها انتستنيس أن تلقى أحسن القبول ، خصوصا عند الابن ، لأنه تبين له فيها أن الفقر لايصح أن يعتبر عقوبة . بل شيئا يتكمل به الإنسان لقاء فضيلة له منقطعة النظير . وقد نادى ديوجنيس بوجوب استغناء الإنسان بنفسه ، وبالزهد والتحرر من الحياء ، كما أظهر من جانبه احتقارا للعرف الاجتماعى إلى حد التهجم عليه . وهو لم يزد جديداً فى الفلسفة التى كان يعلمها انتستنيس ، ولكنه جهل بها حتى جعلها شيئا يشبه التمثيل المسرحى . وقد حكينا من قبل تلك الحكاية (الأسطورية)المتعلقة بتوبيخه للإسكندر الأكبر ، وهى حكاية تزيد كثيرا فى بيان فضل سيد الدنيا .

أما أكبر تلاميذه فهو كراتيس وكان ابنا لأسكونداس الطيبى Ascondas of Thebes (٣٦٥ — ٢٨٥ ق .م .)[٣] الذى زهد فى ثروة كبيرة من أجل الفلسفة ، وقصر حاجاته على قدر أدنى ، وألزم نفسه ألا يتجاوزه أبدا . وقد أدخل فى مذهبه ابنين لأسرة من أشراف تراقيا ، وهما هيبارخيا Hipparchia وأخوها متروكليس من أهل مارونيا Metrocles of Maroneia .وقد تزوج الفتاة ، فعاشا معا كما يعيش أفقر الدعاة إلى الأديان ، أو كما يعيش شحاذان. وكان لكراتيس شئ من الموهبة الشعرية، ويظهر أن الزوجين كانا شخصين تميل إلى محبتهما القلوب ميلا كثيرا .

ولنذكر تلميذا آخر من تلامذة ديوجنيس ، هو أونيسيكريتوس Onesicritos من أهل أستيبالايا (إحدى جزر بحر إيجة) . وكان ملاحا صحب الإسكندر إلى آسيا ، فكان القائد الأكبر للأسطول الذى بنى على نهر الهيداسبيس

Hydaspes ، وظل قائدا طول الرحلة إلى أدنى نهر السند ثم إلى داخل الخليج الفارسى ، وكان أحد مؤرخى الإسكندر ، لكن صدقه فى تاريخه موضع شك . ولما كان كلبيا فقد أسبغ على الإسكندر صورة بطل كلبى ، وقد يكون مصيباً فى ذلك ، فأغلب الظن أن الإسكندر اكتسب بعض نزعات الكلبيين ، فالدكتاتور الناجح لامندوحة له عن أن يصير كلبيا .

ومن بين هؤلاء الرجال الأربعة — انتستنيس ، وديوجنيس ، وكراتيس وأونيسيكريتوس — لم يكن هناك فيلسوف بالمعنى الفنى للكلمة إلا أولهم . فأما ديوجنيس وكراتيس ، وزوجته هيبارخيا ، فكانوا يشبهون كثيرين غيرهم من القديسين والزهاد الذين ظهروا فى كل البلاد تقريبا ، وخصوصا فى الشرق . وكان كراتيس خاصة أشبه بالفقير الهندى ، وبالدرويش المسلم ، وبالكثيرين من أهل الصوامع من النصارى ، وهناك سمة أو أكثر من سمات المذهب الكلبى فى كل قديس. ومن الممكن أن نسأل: هل تأثر ديوجنيس ، أو كراتيس بما شاهداه من نماذج الزهد الهندى ؟ إن هذا ممكن ، لكنه ليس ضروريا لتفسير طريقتهما فى الحياة . أما أونيسيكريتوس فلابد أن يكون قد رأى الفقراء فى الهند ، لكنه هو أيضاً لم يكن محتاجا ، ولا كان الإسكندر محتاجا ، إلى مشاهدة هؤلاء الناس لكى يظهر احتقارهما لزخارف الحياة ومظاهرها الجوفاء .

ولم يكن الكلبيون ، بأى وجه من الوجوه ، يؤلفون مدرسة فلسفية بالمعنى الحقيقى ، نعم ، كان انتستنيس يشرح ما يمكن أن يسمى مذهبا كلبيا . وهو أن السعادة تقوم على أساس من الفضيلة ، وأن الفضيلة تقوم على المعرفة ، وأن المعرفة يمكن أن تعلم ؛ وعلى هذا يمكن تحصيل الفضيلة والسعادة ، ولا يمكن أن يفقد الإنسان سعادة يحصل عليها من هذا الطريق . وقد قبل أتباع انتستنيس هذه الآراء ، ولكن نزعتهم الكلبية كانت أشبه بطريقة فى الحياة منها بمذهب نظرى ؛ كانوا أشبه بالمبشرين والدعاة إلى الخلاص من آفات الدنيا منهم بعلماء اللاهوت . والنزعة الكلبية حال نفسية تتصل بالمزاج ، ولا شأن لها بمذهب نظرى ؛ وكل فلسفة أو ديانة يمكن أن تخرج لنفسها (من بين معتنقيها) كلبيين وقديسين .

المتشككون The Skeptics

بينما كان أونيسيكريتوس يحاول تفسير الحياة على حسب مبادئ الكلبيين ، كان هناك مفكر آخر من الطراز اليونانى — الهندى ، وهو بيرون ، ينشئ مذهبا جديداً هداماً أيضاً ، أو كان من شأنه أن يصير كذلك . وبيرون (٣٦٠ — ٢٧٠ ق . م . على وجه التقريب) هو ابن بلايستارخوس Pleistarchos من مدينة إيليس Elis (الواقعة إلى الشمال الغربى من البيلوبونيز) . ولما كان أبواه فقيرين ، فإنه اضطر إلى أن يتعلم حرفة ، فصار رساما ؛ ولكنه كان شديد الشغف بالفلسفة ، فتتلمذ على بريسون بن ستيلبون[٤] فى أول الأمر ، ثم تتلمذ فيما بعد لأنكسارخوس الأبديرى Anaxarchos of Abdera وكان أحد أصحاب ديموكريتوس . ويقال إن كلا من أنكسارخوس وبيرون صحبا الإسكندر إلى آسيا (ومن الطريف أن نجد كثيراً من الفلاسفة ورجال العلم فى صحبة هذا الفاتح) ، وكذلك اختار بونابرت كثيرا من رجال العلم فى حملته على مصر[٥] . وبعد أن عاد بيرون من آسيا استقر فى مدينة إيليس . مسقط رأسه . وفيها قضى حياته فى عزلة وتقال شديد من الدنيا . وهو لم يكتب شيئاً . سوى قصيدة وجهها إلى الإسكندر ، ولكن تلميذا وفيا له ، وهو تيمون . من أهل فليوس ، (٣٢٠ — ٢٣٠ ق . م . على وجه التقريب)[٦] خلد ذكر أستاذه وأشاد بحكمته وفضائله .

ولا يمكن أن يقال فى بيرون ما قيل فى معظم الأنبياء من أنهم لم يكن لهم منزلة فى قومهم ، بل نحن نجد ، على العكس من ذلك ، أن مواطنيه جعلوه كاهنهم الأكبر . وأقاموا نصبا لتخليد ذكراه بعد أن مات بقليل . وعلى حين كان غيره من الفلاسفة يشكون فى حقيقة المادة (أو فى حقيقة اللامادة) ، كان بيرون أكثر جرأة لأنه شك فى إمكان المعرفة . فهو يقول : كيف نستطيع أن نقطع بشىء أيا كان ؟ وبصفة خاصة كيف نستطيع معرفة حقيقية الأشياء ؟ ألسنا لا نزال نلاحظ ضروب التناقض فى إدراكاتنا الحسية وفى آرائنا وعاداتنا ؟

إن ضروب التناقض هذه تثبت لنا استحالة المعرفة ، ولذلك فإننا إذا كنا صادقين مخلصين ، لا نقول : « إن هذا هوكذا » بل نقول : « إن هذا يجوز أن يكون كذا » ، ولا نقول : « إن هذا حق » ، بل نقول : « إن هذا يجوز أن يكون حقا»[٧]. وهذا التوقف عن الحكم (acatalēpsia, epochē) كان من شأنه أن يورث حالا من عدم القابلية للتأثر ataraxia ، أعنى سكينة كاملة فى النفس وتحرراً من العاطفة apatheia وضربا من عدم المبالاة adiaphoria بالأشياء الخارجية وعدم الاكتراث للذة والألم . والحق أن مذهب پيرون كان ضربا من الطمأنينة النفسية .

لم ينشئ پيرون مدرسة نظامية ، بل كان له من يعجب به ، أمثال تيمون ، كما أنه أثر فى أشخاص آخرين غير كثيرين ، مثل أركيسيلاوس[٨] (٣١٥ — ٢٤٠ ق . م . تقريبا) ، وهو مؤسس الأكاديمية الوسطى ، ومثل كارنياديس (٢١٣ — ١٢٩ ق . م .)[٩] ، مؤسس الأكاديمية الجديدة ، وأينيسيديموس[١٠] وكان فى أيام شيشرون (النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد) أو بعد ذلك ، ومثل سكستوس (فى النصف الثانى من القرن الثانى للميلاد) . ومذهب پيرون ، شأنه شأن المذهب الكلبى ، أشبه بحال نفسية منه بمذهب فلسفى ، فلا يزال فى كل مكان قوم تميل عقولهم إلى الشك ، غير أن مذهب الشك ، بالمعنى البيرونى أو بغيره ، إنما يكون دائما محدوداً ونسبيًّا ، فليس من أحد يشك فى كل شئ أو يؤمن بكل شئ . وهذه النزعة البيرونية قد أبان عنها مونتانى بعبارته التى كانت شعارا له ، وهى قوله : ماذا أعرف ؟ وعبر عنها لاجرانج ، إذ كان يجيب بعبارة أثيرة عنده ، وهى قوله : « لاأدرى » . ومن يشتغل بالعلم لايستطيع أن ينتج عملا طيبا إن لم يكبح خياله على الدوام بلجام من مذهب الشك أو مذهب اللاأدرية .

اليوهيميرية Euhemerism

حوالى هذا الوقت تبلورت مجموعة أخرى من الآراء عند يوهيميروس الصقلى المسينى الذى نبغ فى بلاط كساندروس Cassandros[١١] . ويقال إنه ركب

البحر متجها صوب الجنوب فى البحر الأحمر حتى خرج إلى البحر العربى ، ثم اجتازه إلى أن وصل إلى جزيرة من جزر الهند تسمى بانخايا Panchaia وفيها وجد نقوشا مقدسة . وسواء أكانت أسفاره ومكتشفاته حقيقية أم خيالية فإنه كتب وصفا لها عنوانه : Hiera anagraphe أو التاريخ المقدس ، وفيه أكد الأصل التاريخى للأساطير ، وكان ذلك محاولة لصبغ الأساطير ، أعنى ديانة اليونان ، بصبغة عقلية .

ولايكاد هذا يكون شيئاً جديداً ؛ وإن جاز أن يكون كتاب يوهيميروس (ولم تبق منه إلا شذرات) أول ما نشر من هذه الآراء ، أو أول ما نشر وراج عند الجماهير . ويجوز أن يكون قد وقع فى نفس يوهيميروس أثر للعادة المصرية التى أخذ بها اليونان ؛ وهى عادة تأليه الآدميين ؛ فالطبيب المصرى أمحوتب كان يعتبر بطلا ، ثم صار إلها ، وهذا ما وقع للطبيب اليونانى أسكليبيوس . وهكذا كانت هناك كائنات فى مكانة وسطى بين الناس والآلهة ، وهم الأبطال . والحدود الفاصلة بين عامة الناس والأبطال من جهة وبين الأبطال والآلهة من جهة أخرى لم تكن دقيقة ، بل كان الانتقال من طائفة إلى الأخرى ممكنا . وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون طبيعيًّا إلى حد ما أن يفترض أن لكل الآلهة أصولا إنسانية أو أنسابا إنسانية ؟ ألم تكن الأساطير اليونانية مشربة إلى حد الإسراف بنزعة التشبيه بالإنسان ؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يتصور أن يكون الآلهة مخالفين لبنى الإنسان فى الجوهر إذا كانت كل حكاية تحكى عن هؤلاء الآلهة تدل على أن لهم حسنات الآدميين ونواحى نقصهم ؟ إننا نستطيع أن نفترض مطمئنين أنه قبل يوهيميروس بزمان طويل اعتاد كل مشتغل بالعلم أن يعتبر الأساطير المتعلقة بالآلهة ضربا من الشعر يكفى أن يكون محبوبا ، ولم يكن أحد من العلماء ينتظر من الناس أن يؤمنوا بهذه الأساطير . وإذن فلم يكن هناك بد من التماس حقيقة الدين ، لا فى الأساطير ، بل فى الشعائر والأعياد التى كان اليونان باحتفالهم بها يرضون حاجتهم من محبة الجمال والسمو ، ويعبرون عن شعورهم بالأسرار

الإلهية ، ويعربون عن أخوتهم الروحية . ولكن الاحتفال بهذه الأعياد كان لسوء الحظ مشجعاً على الخداع والغش من جانب رجال الدين، وكان لابد أن يثير هذا الخداع من النقد الكثير مما إثارته الأساطير نفسها .

وكان رجال المدرسة البرقاوية التى أسسها اريستبوس البرقاوى ، أحد تلامذة سقراط ، يدعون إلى هذا النقد الموجه لرجال الدين[١٢] ؛ وكانت فلسفة أريستبوس تنزع نزعة مذهب اللذة ، كما تنزع نزعة عقلية . أما تعليم هذه الفلسفة فقد واصلته أريتى Arete ابنة أريستبوس ، كما واصله ابنها أريستبوس الأصغر (وهو الملقب : بالذى علمته أمه) وأفراد آخرون قليلون، مثل انتيباتر البرقاوى وتيودوروس الملحد وهيجسياس وانيكيريس الأصغر . ويجوز أن يكون يوهيميروس قد تأثر بالمدرسة البرقاوية ، ولكن لاسبيل إلى إقامة الدليل على ذلك ، كما لاحاجة إلى افتراضه ، إذ كان المذهب العقلى ملائما لبعض اليونانيين ، كما كان التعلق بالخرافات طبيعيًّا عند كثيرين غيرهم .

وقد أعيد بيان مذهب يوهيميروس فى اللاتينية على يد إينوس (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) ، وفى اليونانية على يد ديودوروس الصقلى (فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد)، كما انتفع به النصارى الأوائل فى محاربتهم للوثنية . وهذه ناحية من نواح كثيرة للحرب الخالدة بين العقل والإيمان بالخرافات .

حديقة أبيقورس Epicuros[١٣]

أبيقورس الساموسى :

حاولنا أن نقدم لقرائنا فكرة ما عن عظمة ديموكريتوس الأبديرى (ص١٠٤— ١٠٦ج ٢)، وهو من أنقى وأمجد الشخصيات التى يفخر بها النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد . وكانت بلاد اليونان فى ذلك الزمان طافحة بضروب العبقرية ، إلى حد أن بعضها ضاع أو غمره النسيان . وقد أغفل ذكر ديموكريتوس أثناء

الشطر الأكبر من القرن الرابع ، فلم يذكره أفلاطون قط ، وأشار إليه أرسطو مرات كثيرة ، ولكن لينقده فحسب. غير أنه لحسن الحظ بعثت فلسفته ، وإن لم تبعث شخصيته. فى الربع الأخير من ذلك القرن على يد نبى جديد ، هو أبيقورس.

كان أبيقورس (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م .) سليل أسرة من أشراف أثينا ، ولكن أباه نيوكليس كان قد هاجر إلى جزيرة ساموس ؛ والراجح أن أبيقورس ولد فى هذه الجزيرة ، أما الذى لاشك فيه فهو أنه قد تعلم ، فيها ، ونضج عقله مبكرا ، فأولع بدراسة الفلسفة وهو فى الرابعة عشرة . ولما ذهب إلى أثينا بعد أربع سنوات كان قد حصّل قسطا طيبا من العلم ؛ ولاشك أن ذهابه إليها كان بقصد اجتياز امتحان الدراسات الوطنية الذى يخوله أن يقيد ضمن فتيان أرض آبائه. وأثناء زيارته لأثينا (٣٢٣ ق . م .) أمر پرديكاس Perdiccas الوصى على أبناء الإسكندر ، والقائد المستبد فى المدينة — بإكراه المستعمرين الأثينيين المقيمين فى جزيرة ساموس على مغادرة هذه الجزيرة . وعلى هذا لم يعد أبيقورس إلى جزيرة ساموس ، بل تنقل بأسرته فى الساحل الآسيوى ، وأقام فترات قصيرة فى أماكن شتى ، وخصوصا فى المدينتين الأيونيتين كولوفون Colophon وتيوس Teos (وليجتهد القارئ فى أن يتصور طائفة من الأثينيين الذين نبت بهم الأرض ، فأصبحوا لاجئين لا وطن "D.P.'s" * لهم ، ينتقلون من مكان إلى ، مكان). وفى مدينة تيوس تلقى أبيقورس شيئا من العلم عن نوسيفانيس Nausiphanes[١٤] وكان يشرح فلسفة ديموكريتوس وفى سن الثلاثين (سنة ٣١١ ق م.) استقر فى مدينة ميتيلينى Mitylene ، وبدأ حياته الخاصة فيلسوفا مستقلاً . ولابد أن تأثيره ، حتى فى ذلك الوقت ، كان كبيرا ، ذلك أن إخوته الثلاثة[١٥] كانوا من بين تلاميذه ؛ وهذا الأمر النادر يشهد بطيب جوهره لا بمقدرته على التأثير والإقناع فحسب . وبعد حين انتقلت المدرسة الجديد إلى مدينة لامبساكوس على الشاطئ الآسيوى لمضيق الدردنيل ، وهناك اجتذب أبيقورس تلاميذ

* هذان الحرفان اختصار لكلمتى Displaced Persons الذين أجلوا عن أوطانهم = اللاجئون بالمعنى الحديث . (المترجم)

آخرين اتبعوا مذهبه ، مثل مترودورس Metrodoros وكولوتيس Colotes وپوليايوس Polyainos . وايدومينيوس Idomeneus وليونتيوس Leonteus وزوجته تيميستا Themista [١٦] .

وكان النجاح الذى أحرزه أبيقورس حتى ذلك الحين سببا فى انتقاله بمدرسته إلى أثينا ؛ ففى هذه المدينة دون غيرها كان يتسنى لمدرسة فلسفية جديدة أن يتوطد تأثيرها على النحو الكامل . هكذا رجع أبيقورس إلى موطنه الأصلى فى سنة ٣٠٧ ق. م . ؛ وذلك أثناء حكم الطاغية ديمتريوس بوليوركيتيس ملك مقدونيا Poliorcetes واشترى أبيقورس بيتا وحديقة[١٧] فى مليتا Melita (بين المدينة وميناء بيرايوس) وقضى بقية عمره هناك . وكانت نحوا من سبع وثلاثين سنة . وقد استطاع أن يبدأ بدءا حسنا ، كما يبدأ أى أستاذ معترف بفضله ؛ وذلك لأن كثيرا من تلاميذه ، ومنهم أسرته نفسها ، جاءوا معه ، ولم يلبث أن جذب إليه تلاميذ جددا من بينهم هرمارخوس ، من ميتيلنى ، الذى قدر له أن يصير خليفة له ، وبيتوكليس وتيموكراتيس أخو مترودورس . وقبل بعض الأرقاء فى المدرسة ، مثل ميس Mys وقد أعتقه أبيقورس — كما قبل بعض النساء ، بل بعض البغايا ؛ مثل ليونتيون وقد صارت فيما بعد زوجة مترودورس .

وكان التعليم فى « حديقة أبيقورس » بريئا من التكلف ، كما كانت الحياة فيها بسيطة أخوية إلى أكبر حد . لكن وجود نساء فيها لم يلبث أن صار سببا فى التحدث عنها بالسوء ، كما كان نجاحها سببا فى إثارة الغيرة . وزعم بعض خصومها أن ما فيها يجرح إحساسهم . وإذن فإن السمعة السيئة التى تلحق بمن يسمى «أبيقوريًّا » كانت لاصقة بالمدرسة الأبيقورية فى مليتا قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد .

وكان من شأن هذه الإرجافات بالمدرسة الأبيقورية أن زادت من ولاء التلاميذ لأستاذهم . فاستمرت الحياة بينهم حياة مودة وبساطة سنين كثيرة . ومات أبيقورس ، وهو فى سن السبعين ؛ وأوصى بالبيت والحديقة إلى هرمارخوس

على أن مذهب أبيقورس كان أكثر من مجرد مذهب ذرى . ونستطيع أن نقول إن المذهب الذرى كان لب الطبيعيات فى الفلسفة الأبيقورية ، وقد عدله صاحبه لكى يقلل من حدة التصادم بين الذرات . ولكى يدع مجالا لقدر أدنى من الوضوح والتحرر .

ومن آرائه الكبرى أن اللذة هى الخير الوحيد . غير أن تصوره للذة كان بعيدا كل البعد من مذهب اللذة فى صورتها الفظة ، لأن نوع اللذة الذى كان يعنيه لايمكن أن يناله الإنسان إلا بمباشرة كثير من الفضائل ، كالحكمة والعدل وقمع كثير من الشهوات ، وكان يقتضى العفة . إن لم نقل يقتضى الزهد . وهكذا أعطى أبيقورس معنى جديداً للحكمة اليونانية القديمة : « لاتُفْرط » .

وثم رأى آخر لأبيقورس كثيرا ما فهمه الناس على غير وجهه ، وهو الذى يمكن أن يسمى مذهبا حسيًّا . ذلك أنه كان يستنكر الخيالات الفيثاجورية والأفلاطونية ، فذهب إلى أن معرفتنا كلها مستمدة من حواسنا . على أن العلم التجريبى لم يكد يكون له وجود فى زمان أبيقورس . وإلا فربما كان يقول إن معرفتنا يجب أن يكون لها أساس تجريبى ؛ وهو وإن لم يستطع أن يذهب إلى هذا الحد . فقد ذهب إلى أن الإنسان يجب أن تكون لديه بينة حسية من نوع ما ؛ وإلى أن الألفاظ يجب أن تقابلها أشياء محسوسة . ولا شك أنه فى مذهبه الذرى قد ذهب إلى أبعد مما يمكن تمحيصه بالتجربة ، بل إن مذهبه لم يكن نظرية يمكن تطبيقها بالمعنى الحديث . ذلك لأنه كان فيلسوفا دون أن يكون عالما .

وكان أبيقورس أخلاقيًّا قبل كل شئ ، يحاول أن يشق للفضيلة والسعادة طريقاً جديداً ؛ فعنده أن الفضيلة تقتضى الحرية . وكانت حرية الروح الإنسانية أمرا جوهريًّا فى نظر أبيقورس . حتى إنه اضطر إلى تعديل مذهبه الذرى الأساسى لكى يجعلها ممكنة . وقوله بعدم التزام الذرات قاعدة ثابتة جعل هناك مجالا للصدفة والحرية فى أشياء من شأنها أن تكون مادية إلى أقصى حد . وهذا العنصر من الصدفة والحرية يزداد — تبعا لزيادة الصبغة الروحانية ، فى المادة — حتى يبلغ ذروته فى النفس الإنسانية .

ولابد فى تحصيل السعادة من تعوّد ضبط النفس وكفها عن هواها ، أعنى أن السعادة يوصل إليها على نحو سلبى ، وكان « أستاذ الحديقة » ينصح تلاميذه ألا يتزوجوا وألا ينجبوا أبناء ، وألا يلفتوا انتباه الناس إليهم . وإنما شنع الناس على مذهب اللذة الأبيقورى لأن أعداءه تخيلوا أنه يطلب اللذة (لاسيما اللذات الحسية ، لأنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتصوروا لذات غيرها) ، على حين كان مذهب أبيقورس فى الحقيقة يرمى إلى تخليص الإنسان نفسه من الألم والاضطراب . وكان الأبيقوريون يحاولون أن يطرحوا عن أنفسهم أنواع الخوف ، كالخوف من الموت أو الفقر ، وأن يبلغوا الحال التى يكون فيها الإنسان بحيث لايخرجه عن سكينته شئ ؛ كانوا يميلون إلى الانسحاب من الحياة ، ويستطيع الإنسان أن يتهمهم بأنهم من أنصار روح الانهزام والخور . والحقيقة أن روحهم فى جملتهم كانت تنقصها البطولة ، لكنها لم تكن روحا مضادة للأخلاق . وقد يبدو أنهم كانوا أنانيين ، ولكن ينبغى ألا ننسى أنهم كانوا يعيشون فى أزمان مملوءة بالمخاطر ، الطغيان فيها أكثر شيوعا من العدل ، وكل شئ قد بلغ من التزعزع أكثر مما بلغه فى أى وقت مضى ، فكان الأحزم للإنسان أن يخفى أحواله بدل أن يجلب لنفسه الحسد والأذى[٢١] .

محاربة أبيقورس لرجال الدين والخرافة :

والركن الأكبر فى فلسفة أبيقورس فى الحياة ، الركن الذى خلق له ولمذهبه خصوما كثيرين ألداء ، هو مناهضته الخرافات . ولقد كررنا من قبل أن الخرافات كانت قد طغت فى العالم اليونانى حتى جاوزت الحد ، وكان الهيام بالسحر والخوارق موجودا منذ أقدم العصور (بدليل ما كان عند اليونان فى القديم من شعائر باطنية سرية وأساطير وتداوٍ بالمخلفات والآثار المقدسة) . ثم جاءت الحروب بما فيها من البلايا ومن قلة الطمأنينة السياسية والاقتصادية ، فجعلت هذا الهيام أكثر استشراء ، وزادت أنواع البؤس أثناء الحروب ، حتى بلغت ذروة جديدة أعلى من ذى قبل ، وخصوصا بعد موت الإسكندر وانحلال

الأمر هو الذى ينكر ما يعبده العامة من آلهة ، بل هو الذى يصف الآلهة بما يعتقده العامة فى حقها ؛ ذلك أن أقوال العامة عن الآلهة ليست من قبيل التصورات الصحيحة التى تتبادر إلى الذهن ولاينقصها إلا سند من المعرفة ، بل هى مفتريات كاذبة . وهذا هو السبب فى أن أعظم النقم تنزل بالأشرار ، وأن أعظم النعم تحل بالأخيار ، من أيدى الآلهة ، لأن الآلهة دائما يميلون إلى ما لهم هم أنفسهم من الصفات الجميلة ، ويرضون عمن يشبههم من الناس ، وينبذون كل ما لايشاكلهم كما ينبذون الشىء الغريب عن طبيعتهم (٢٤) .

والدليل على وجود الله مافى الإنسان من خيرية (وعندى أن هذا لايزال أحسن دليل) . فأبيقورس لم يحارب الدين البرئ من الباطل ، وإنما كان يكره الدين الذى وطد أركانه الأفلاطونيون والأرستقراطيون ، وهو ذلك النوع من الدين الذى كانت تحبذه « الطبقة العليا من الناس » ابتغاء مصلحة الطبقات الدنيا ، وكان ممتزجا ، لابخرافات وضيعة فحسب ، بل بقوة البوليس والجاسوسية والاضطهاد وأنكر أبيقورس فكرة العناية الإلهية التى كانت أثيرة عند الرواقيين . بل أنكر فكرة الخلق ، أو هو على الأقل أنكر فكرة الخلق المتجدد ، فعنده أن الله خلق العالم ثم نفض يده منه وتركه يتطوّر تطوره الخاص . وقوانين الطبيعة لايجوز الاعتداء عليها بأى ضرب من ضروب التعسف .

لقد كان أبيقورس أول من نادى بالخطر الاجتماعى للخرافات ، والحاجة الماسة لمحاربتها ، فلا يجوز أن يكذب على العامة كما كذب عليهم أفلاطون ، بل يجب أن يقال لهم الحق ؛ وإذا لم يكونوا مثقفين ثقافة كافية لإدراك ذلك فالواجب أن يثقفوا ، فالحق ولا شئ سواه هو الذى يجعلهم أحرارا (٢٥) .

فأبيقورس يمثل المذهب الحر والمذهب العقلى ، فى مقابل روح المحافظة وتعمد معارضة التنوير والإصلاح عند أفلاطون . على أن مذهب أبيقورس العقلى لم يكن مطلقا ، بل نسبيًّا ، وأى مذهب عقلى ليس كذلك ؟

وفلسفة أبيقورس مملوءة بالمفارقات ، فقد لطف من مذهبه الذرى قوله بعدم

التزام الذرات قانونا ثابتا ، وبعنصر التلقائية فى حركاتها ، كما لطف من مذهبه المادى اعترافه بالنفس والآلهة . ولكن أكبر مفارقة فى فلسفته هى ما انطوت عليه من الرغبة فى شن حرب شعواء على الخرافات ، لأن ذلك لم يكن ليتمشى على الإطلاق مع ما كانت ترمى إليه فلسفته من جعل الناس بمنأى عن الألم والعناء . فلو أن الأبيقوريين كانوا يريدون أن يجروا على أنفسهم عناء أكثر مما عندهم لما استطاعوا أن يجدوا شيئاً يجلب عليهم البلاء أكثر من محاربتهم الأكاذيب والخرافات الاجتماعية . وإن اختيارهم لقضية هى أكثر القضايا جلبا للمتاعب والمخاطر ، وتصديهم للدفاع عنها ، دليل على تناقضهم البالغ الحد وعلى عظمتهم الخلقية .

وأبيقورس لم يكن عدواً للدين ، وليس صحيحاً أنه كان عدواً للعلم ؛ وإنما كانت عنايته بعلم الأخلاق أكثر من عنايته بالبحث عن العلم الخالص . غير أنه أدرك أن واجبنا الأول هو أن نعرف الحقيقة ، أو بالأحرى أن نعرف الحقيقة لكى نستطيع أن نؤدى واجبنا . أما معارضته لما يمكن أن يسمى « العلم الخالص » فسببها ما كان قد شاب صفاء العلم من تزييف كثير ، فكان أبيقورس يحتقر المنطق بسبب ضلالات أصحاب الجدل ، وكان لا يثق فى الرياضيات بسبب « علم العدد » الفيثاجورى وعلم الهندسة الأفلاطونى وقد أنكر خاصة تأليه الكواكب لأن ذلك كان يحط من علم الفلك ومن الدين على السواء . ولاشك أن الميل إلى خلط العلم الخالص بالسحر الأفلاطونى كان من شأنه أن يجعل أبيقورس على حق فى نبذه لكليهما على السواء . ولم يكن بدّ من أن تؤول محاربته الخرافات والمذهب اللاعقلى إلى حرب على العلوم والديانات الزائفة .

وبعد كل هذا لابد من التسليم بأن أبيقورس لم يكن عنده شئ من حب الاستطلاع العلمى ، ولم يكن عنده باعث يحثه على اكتشاف الحقيقة ، وهذا يفسر لنا السر فى أن أرسطو لم يعجبه . ومن الجائز أن يكون أبيقورس قد نظر إلى كل الحكايات التى جمعها أرسطو فى كتبه الحيوانية نظرته إلى أشياء فارغة لا طائل وراءها ؛ ويجوز أيضا أنه كان يقول : مالنا والعناية بتربية الأسماك أو المزاوجة بين الحلزون؟ فلنصرف كل اهتمامنا إذن إلى المسائل التى تعنى الإنسان! ونحن

پوليانينوس فى شهر ميتاجايتنيون ، كما كنت أفعل حتى الآن[٢٨] .

وليرع كل من أمينوماخوس ، وتيموكراتيس ، أبيقورس بن متروذورس ، وأيضا ابن بوليانينوس ، ما داما يتعلمان ويعيشان مع هرمارخوس . وليقوما أيضا بالإنفاق على ابنة متروذورس ما دامت مؤتمرة بأمر هرمارخوس ومطيعة له ؛ وإذا بلغت رشدها فليزوجاها من زوج يختاره هرمارخوس من بين أعضاء المدرسة ، وليعطهما أمينوماخوس بالتشاور مع هرمارخوس من ضروب الدخل التى تؤول إلىّ ، ما يريانه كافيا لمعيشتهما عيشة حسنة ، كل عام .

وليجعلا هرمارخوس وصيًّا على الأموال كأنفسهما ، بحيث لايعمل شئ إلا بالاتفاق معه ، لأنه شاب معى فى الفلسفة وتركته على رأس المدرسة . وإذا بلغت الفتاة سن الرشد فليقم أمينوماخوس وتيموكراتيس بالإنفاق على جهازها ، وذلك بأن يأخذا من الممتلكات بقدر ما تسمح به الظروف بموافقة هرمارخوس ، وليقوما بالإنفاق على نيكانور ، كما كنت أفعل حتى الآن ، بحيث لايصبح أحد من أعضاء المدرسة ، الذين خدمونى فى حياتى الخاصة ، وأظهروا لى محبتهم من كل وجه ، واختاروا أن يشيبوا معى فى المدرسة ، فى حاجة إلى ضروريات الحياة ، وذلك بقدر ما يكفى ملكى .

ولتعط كلّ كتبى إلى هرمارخوس .

وإذا حدث لهرمارخوس قبل أن يكبر أبناء متروذورس فليعطهم أمينوماخوس وتيموكراتيس من الأموال التى أوصيت بها ما يكفى لحاجاتهم المتنوعة ، ما داموا مطيعين . وليتعهدوا بقية الأمور طبقا لتعليماتى ، ولينفذ كل شئ بحسب وسعهما . وإنى أعتق من أرقائى ميس ونكياس وليكون ، وأمنح فيدريون حريتها »[٢٩] .

وخلف هرمارخوس أبيقورس سنة ٢٧٠ ق. م. ، ثم خلفه پوليستراتوس ، ثم ديونيسيوس ، ثم بازيلايديس . وممن اشتهر من رؤساء المدرسة أپولودورس ، وسمى طاغية الحديقة ، وقد كتب أكثر من أربعمائة كتاب ، والبطلميوسان الإسكندريان اللذان كان أحدهما أسود والآخر أبيض[٣٠] ، وزينون الصيداوى

تلميذ أبوللودورس ، وكان مؤلفا مكثرا ، وديمتريوس وكان يسمى اللاكونى * وديوجنيس الطرسوسى وقد جمع المحاضرات المختارة ، وأوريون ، وآخرون يسميهم الأبيقوريون الحقيقيون سوفسطائيين [٣١] .

وقد ذكرنا هذه الأسماء للتدليل على بقاء المدرسة الأبيقورية وعلى حيويتها . وزينون الصيداوى ينتقل بنا إلى القرن الأول قبل الميلاد ، لأن شيشرون سمعه فى أثينا ، ولابد أن ذلك كان فى عام ٧٩ ق . م . ولكن شيشرون كان قد تعرف بالمذهب الأبيقورى قبل أن يذهب إلى بلاد اليونان ، لأنه استمع إلى محاضرات فيدروس (من ١٤٠ إلى ٧٠ ق . م.) ، وذلك فى روما قبل عام ٨٨ ق. م. [٣٢] وكان فى أيام شيشرون أبيقورى آخر هو فيلوديموس الجدرى . وأعظم الأبيقوريين جميعاً لوكريتيوس فى النصف الأول من القرن الأول ق . م . ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول عنه أكثر من ذلك ، وكان يرى أن أبيقورس أشبه بإله (راجع أول كتابه المسمى فى طبيعة الأشياء) [٣٣] .ولكن هذا الرأى لم يقدر له أن يشيع ويروج فيما بعد ، وإن كان قد شارك لوكريتيوس فيه أشخاص شواذ ، مثل لوكيان الساموساتى Lucian of Samosata وصديقه كلسوس [٣٤] وكل منهما كان يعتبر أبيقورس بطلا إلهيا ومحسنا للإنسانية .

نقول إن هذا الرأى لم يقدّر له أن يشيع ويروج ، ولكن مجد أبيقورس ومجد لوكريتيرس من بعده كان فى محاربتهما للخرافات ، ومثل هذه الحرب لاتكسب أحدا ، ولايمكن أن تكسبه أبدا ، محبة عامة للناس . بل إنه لما قضى على الخرافات آخر الأمر لم يكن ذلك إلا لأنه قد حلت محلها خرافات أخرى ، وذلك كما نقتلع الأعشاب التى تكون فى حدائقنا ، فهى تترك المجال لأعشاب أخرى مثلها . وبرغم جهود أبيقورس لم تنقص الخرافات الوثنية ، بل على العكس كان من شأن قلة الاستقرار السياسى والاقتصادى أن تزيد منها . ثم أخذ أحسن ما كان فى الديانة القديمة يتدهور شيئا فشيئا . كما أخذ الفساد يدب فيه ،

---

* نسبة إلى لاكون ، إحدى أراضى بلاد اليونانى ، جنوبى شرق البيلوبونيز ، وكان أهلها يؤثرون الكلام الموجز الدقيق الذى لا يخلو من التواء . (المترجم)

John Dalton (١٧٦٦ — ١٨٤٤) .

ولو تتبعنا ما طرأ بعد ذلك على المذهب الذرى فى ثوبه العلمى من تطورات . لذهب بنا البحث بعيداً عن ميدان كلامنا . ولكن ليسمح لنا القارئ أن نثبت هنا هذه الملاحظات : استغرقت إقامة المذهب الذرى على أساس تجريبى سليم كل القرن التاسع عشر تقريبا ، واقتضى ذلك قدراً كبيرا من البحث الكيمائى ، حتى إذا أصبح النجاح فى متناول البصر ، أخذ بعض رجال العلم وبعض الفلاسفة — ممن كانوا يسعون إلى الوصول لفهم الأشياء فهما أعمق — ينكرون المذهب الذرى ويعتبرونه ضربا من الوهم الخادع . ونشرت على الناس آراء معارضة لهذا المذهب ، كتبها رجال مثل إرنست ماخ Ernst Mach (١٨٣٨—١٩١٦)[٤٠] ، وبيير دوهم Pierre Duhem (١٨٦١ — ١٩١٦) . بل نشرها عالم من المشتغلين بعلم الكيمياء العملية مثل فيلهلم أوستفالد Wilhelm Ostwald (١٨٥٣ — ١٩٣٢) . ولكن هؤلاء الرجال كانوا يناضلون كما يناضل جنود المؤخرة فى الجيش ، وذلك فى الوقت الذى لم يعد فيه المذهب الذرى مجرد فرض علمى ، بل صارت الذرات فيه تحصى وتوزن ، وإن كانت لم تعد تعتبر ذرات بالمعنى الحرفى الكلمة « ذرة » لأنها أصبحت ترد إلى عناصر أخرى أصغر من الذرات إلى حد لايكاد يصدقه الإنسان .

وإذا أردنا أن نعود إلى أبيقورس ، فلابد أن نكرر القول بأن رفض المذهب الذرى من جانب أوستفالد وغيره ، كان أكثر تمشيا مع روح العلم بما لايقاس من قبول أبيقورس لذلك المذهب قبولا أعمى . وإن كشف أبيقورس ، أو بعبارة أصح إعادة كشفه ، للمذهب الذرى لم يكن عملا علمياً قام به ومؤرخ العلم يولى أبيقورس ما يستحقه من التقدير من أجل فلسفته فى جملتها ، وبخاصته من أجل محاربته للخرافة ، أكثر من تقديره من أجل مذهبه الذرى . والحق أن العلم لايمكن أن يزدهر فى الظلام ؛ ولكى يجعل الإنسان نموه ممكنا لابد له أن يكون مستعداً لمحاربة السحرة والخرافة عند كل خطوة يخطوها . وهذا ما فعله أبيقورس أو ما حاول أن يفعله .

شخصية أبيقورس ، ووفاته :

وأحسن ما نختم به هذا الفصل أن نعطى القارئ فكرة عن شخصية أبيقورس . ومن الخير أن يكون الإنسان قادراً على ذلك . وخصوصا إذا ذكرنا أننا لانكاد نعرف عن شخصيات معظم رجال العلم الكبار فى العصر القديم . فمعظمهم أشبه بالصور المجردة . أما أبيقورس فهو شخصية حية .

وإنه لجميل أن نتخيل . أبيقورس ماشيا مع تلاميذه فى حديقة مليتا ، يتحدث إليهم ويتذاكر معهم . وقد كان لديه من الفسحة فى الوقت ما يمكنه من أن يكتب كثيراً . ولكن يبدو أنه لم يكن يلقى محاضرات منتظمة . وهو لم يكن محاضرا . وإنما كان معلما بالمعنى الحقيقى . شديد الاهتمام بتلاميذه ، وهو لم ينشئ مجرد مدرسة . بل أنشأ جماعة يؤلف بين أعضائها الإخاء . ولم يلتف حوله رجال فحسب ، بل نساء وأطفال أيضا . وهذا هو نص خطاب منه إلى أحد أبنائه :

« وصلنا إلى لامبساكوس فى سلام وعافية . بيتوكليس . وهرمارخوس . وكتيسيبوس . وأنا ، وهناك وجدنا تيميستا وأحبابنا الآخرين بخير جميعا . وأرجو أن تكون أنت أيضا وأمك بخير . وأن تكون دائما مطيعا لأبيك وأمك كما هو دأبك . واسمح لى أن أقول لك إن السبب فى محبتى ومحبتنا جميعاً لك هو أنك دائما مطيع لهما »[٤١].

هذه الوثيقة فريدة فى الأدب القديم . ولأبيقورس خطابات أخرى تتضمن ما يشبه ذلك من دلائل البر بوالديه وإخوته وتلاميذه . بل البر بأرقائه . وعلى عكس ما كان يتخيله خصوم أبيقورس من أنه كان شيطانا فاجرا . فإنه كان إنسانا بسيطا ودودا . محبا للحياة والناس . وكان أسلوبه فى معيشته معتدلا . وقد أدرك الحاجة إلى الأعياد فى مناسبات معينة . ذلك لكى يكسر من حدة توالى الأيام على وتيرة واحدة ، ويجعل الفرق فى تواليها بينا . فجعل اليوم العشرين من كل شهر مخصصا لعيد صار بعد وفاته يوم ذكرى له ولمترودورس . ويؤسفنا أننا لا نعلم كيف كان الإنسان يقبل عضوا فى الجماعة الأبيقورية

المتآخية ؛ ولابد أن السماح للإنسان بأن يدخل الحديقة الأبيقورية ويتحدث مع الإخوان والأخوات كان يعتبر نعمة ، نعمة لايشوبها شئ من السخف وليس فيها إلا المحبة والعقل .

أما ما لايسرّ فى شخصية أبيقورس (وهذا يسوءنى كثيرا جداً) فهو حكمه على أساتذته وعلى غيره من الفلاسفة حكما بعيداً كل البعد عن عرفان الفضل والجميل . كان يسمى أستاذه نوسيفانيس السمكة الهلامية[٤٢]. وقد استعمل ألقابا أخرى قبيحة فى وصف هيراكليتوس (المخلط) وديموكريتوس (اللغو)وأرسطو (الماجن) ، ورفض أن يعير لويكيپوس أى اعتبار . على أنه ربما تنكر العبقرى لأساتذته ، لأنه لايدرك مقدار ما لهم عليه من فضل ، وربما أنساه إياهم سورة تحمسه ، وقد يكون مخلصا فى ذلك ، لكن قلة الاعتراف بالفضل لصاحب الفضل نقص فى الكياسة . وهذا ما يحيرنى من أبيقورس أكبر الحيرة ، لأن غمط الناس حقهم والحط من قدرة ذوى القدر يكاد يكون دائما أمارة من أمارات الضعة ، وأبيقورس كان رجلا عظيما جداً ، فكيف أمكن أن يعمى عن عظمة أسلافه وفضل أساتذته ؟

وكما نعرف عن حياة أبيقورس أكثر مما نعرف عن حياة غيره من فلاسفة اليونان ، فإننا نعرف عن ظروف موته أكثر مما نعرف عن ظروف موتهم . نعم نحن نعرف ظروف موت سقراط معرفة وافية ، لأنه أعدم إعداما على رءوس الأشهاد ، أما غيره من الفلاسفة الذين ماتوا موتا طبيعياً فعلمنا بظروف موتهم أقل وضوحا . وفيما يختص بمرض أبيقورس الأخير يقدم لنا ديوجنيس اللائرسى بيانا دقيقا : يقول :

«مات أبيقورس فى السنة الثانية للاحتفال السابع والعشرين بعد المائة للألعاب الأولمبية (= ٢٧١ — ٢٧٠ ق . م .)، فى أيام رياسة بيتاراتوس ، وكان إذ ذاك فى سن الثانية والسبعين ، وتولى المدرسة بعده هرمارخوس بن أجيمورتوس من أهل ميتيلينى . ومات أبيقورس من حصاة فى الكلية ، بعد علة دامت أربعة عشر يوما . هذا ما يحدثنا به هرمارخوس

فى خطاباته . ويحكى هرميبوس أنه دخل حماما برونزيا فاتر الماء، وطلب نبيذا صرفا فتجرعه ، وبعد أن أوصى أصحابه أن يظلوا ذاكرين آراءه لفظ النفس الأخير » .

وكتب أبيقورس فى اليوم الأخير من حياته خطابا إلى صديقه أيدومينيوس يتضمن حكاية أخرى لآلامه وصورة أخيرة للطفه ، لا يمكن أن تنسى . يقول :

فى هذا اليوم الذى أشعر فيه بأعظم السعادة ، والذى هو أيضا اليوم الأخير من أيام حياتى ، أكتب إليك هذا ، إن الآلام التى أعانيها من انحصار البول ، والدوسنتاريا ، قد بلغت من الشدة حداً لامزيد له ، ومع هذه الآلام كلها ، أحس بسعادة روحية إذا تذكرت محادثاتنا فيما مضى . وإنى أحب منك أن ترعى أبناء مترودورس ، بحيث يكون ذلك منك طول حياتك على مدى محبتك لى وللفلسفة(٤٣) .

الرواقية THE STOA :

لايمكن معرفة ميلاد المذهب الرواقى على وجه التحديد ، لأننا لانعرف متى ولد مؤسسه زينون . فإذا كان ميلاده قد تأخر حتى سنة ٣٣٦ ق . م . ، فإن المذهب الرواقى لايكاد يكون من ثمرات القرن الرابع قبل الميلاد، أو هو يرجع إلى السنوات الأخيرة منه. ولكن ميلاد زينون حددت له سنون سابقة على ذلك ، فجعل فى سنة ٣٤٨ مثلا ، بل وفى سنة ٣٥٦ . وعلى هذا يكون زينون معاصرا لأبيقورس وأسن منه . على أن ثم سببا آخر أهم من ذلك يدعونا إلى الكلام عن المذهب الرواقى فى هذا الفصل ، ذلك أنه من ثمرات عصر الإسكندر الأكبر ، ولا عبرة بالزمن الذى فيه اكتمل نموه .

زينون الكيتيونى Zenon of Cition

ولد زينون بن مناسياس فى كيتيون . وزعم بعضهم أنه فينيقى الأصل ، وهذا محتمل ، فكيتيون أتى عليها زمن كانت فيه من جملة مستعمرات الفينيقين فى

قبرص وربما كانت أقدم مستعمراتهم فى هذه الجزيرة[٤٤] ؛ أما أنه تأثر بمؤثرات فينيقية فأمر يقرب من اليقين. ثم ذهب إلى أثينا ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، أو فى سن الثلاثين . ودامت دراساته بها أكثر من عشرين عاما ، وربما كان ذلك قبل تأسيسه لمدرسته . وقد ظل على رأس هذه المدرسة ثمانية وخمسين عاما . ومات وهو فى سن الثامنة والتسعين (أو الثانية والسبعين ؟)[٤٥].

وظروف وصوله إلى أثينا تستحق أن تذكر . يقول د. جنيس اللائرسى :

انكسرت به المركب فى أثناء رحلة من فينيقية إلى بيرايوس ، وكانت معه حمولة من الأرجوان . فذهب إلى أثينا وجلس فى دكان ورّاق ، وكان إذ ذاك فى سن الثلاثين . وأخذ يقرأ الكتاب الثانى من كتاب كسينوفون المسمى Memorabilia . فبلغ منه السرور أن سأل : « أين يوجد رجل مثل سقراط ؟ » ، وفى تلك اللحظة اتفق مرور كراتيس ، فقال الوراق لزينون : « اتبع هذا الرجل ! » وأشار إلى كراتيس ، ومنذ ذلك اليوم صار زينون تلميذا لكراتيس وأظهر من وجوه أخرى استعداداً قويا لفهم الفلسفة ، وإن كان فيه قدر كبير من الحياء يحول دون تشربه صفاقة الكلبيين . ورغبة فى معالجة هذا النقص أعطاه كراتيس قدرا مملوءاً من حساء العدس ليحمله عبر الكيراميكوس * وقد دفعه خجله إلى أن يحاول إخفاء القدر عن الأنظار ، فلم يكن من كراتيس إلا أن ضرب القدر بعصى فكسره . ولما شرع زينون فى الهرب ، وحساء العدس يسيل على ساقيه ، قال له أستاذه : لماذا تجرى يا بنىّ الفينيقى ؟ إنه لم تصبك مصيبة كبيرة ! »[٤٦].

هذه القصة تبعث على التفكير من وجوه شتى . فزينون إنما صار فيلسوفا بسبب كارثة أفقرته ، وقد قال فيما بعد : « لقد قمت برحلة رابحة لما انكسر بى المركب »[٤٧] ، وهذا مما يمكن تصديقه دون حاجة إلى ما يضاف إليه . ومن جهة أخرى فى تسمية كراتيس له « بالفينيقى الصغير » ما يؤيد القول بأنه كان فينيقى

---

* فى الأصل الإنجليزى ceramicos ومعناها الفخار ، وهى بشكلها اليونانى اسم لميدان عام فى أثينا ولضاحية من ضواحيها كان يدفن فيها الجنود الذين يموتون فى ميدان القتال . (المترجم)

الأصل . والنقطة الهامة هى أن زينون كان تلميذا لكراتيس الكلبى ، وبحسب الروايات القديمة كانت آراء زينون ذات صلة بآراء سقراط ؛ عن طريق انتستنيس وديوجنيس وكراتيس . وهكذا اختلط المذهب الرواقى والمذهب الكلبى فى البداية . ولامحل للشك على أية حال فى أن عروق المذهب الرواقى تمتد إلى أصول كلبية . إذ يمكن الكشف عن آثار من مذهب الكلبيين فى كل كتب أهل الرواق ، حتى فى ذكريات ماركوس أوريليوس .

وكان لدى أثينا فى آخر القرن الرابع قبل الميلاد أشياء كثيرة تستطيع أن تقدمها لرجل طموح من طراز زينون . وهو ـ وإن كان قد لزم كراتيس الطبيى (الذى عاش إلى سنة ٢٨٥ق . م .) بنوع خاص ، فإنه أخذ عن غيره من الأساتذة فى الأكاديمية وغيرها . وقد ذكر من بين أساتذته كزينوكراتيس ، وپوليمون ، من أساتذة الأكاديمية ، وستيلپون ، وديودورس ، من أساتذة المدرسة الميجارية[٤٨] . وكان پوليمون يؤذيه ويسخر منه قائلا له : « إنك تدخل خلسة من باب الحديقة وتسرق أفكارى وتكسوها ثوبا فينيقيا »[٤٩] . وليس المهم فى الأمر هؤلاء الفلاسفة الذين تردد عليهم زينون فى أثينا ، وإنما هو ذلك الاتجاه المعين الذى اتجهه عقله ؛ ولا شك هنا . كما لاشك بالنسبة إلى أبيقورس ، فى أن منزع زينون فى التفكير كان رد فعل مضاد للأكاديمية والليكيوم وهناك بون شاسع بينه وبين أبيقورس ، وهو يعود إلى أيام الشباب ، ففى حين كان أبيقورس يرجع إلى الوراء ملتمسا مذهب ديموكريترس ، كان زينون متأثرا بهيراكليتوس ومعنى متابعة ديموكريتوس التزام المذهب العقلى ، أما هيراكليتوس فكان من الذين ينزعون إلى القول بالأمور الخفية . وهذه المؤثرات التى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد تبرر إدخال كلّ من الأبيقوريين وزينون فى هذا الجزء من كتابنا ، وكلا الفلسفتين ، فلسفة أبيقورس وفلسفة زينون ، نشأتا وولدتا قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد .

ويحكى ديوجنيس اللائرسى حكايات كثيرة خاصة بزينون ، ومع ذلك لا نراه بوضوح كما نرى أبيقورس . وفى بعض مميزاته التى يشير إليها ديوجنيس

ما يلفت النظر ، فهو يذكر مثلا أنه كان أعوج العنق ، نحيفا ، أقرب إلى الطول ، أسمر اللون ، وأنه كان مولعا بأكل التين الأخضر وبحمامات الشمس (٥٠) . ومن الواضح إلى درجة لابأس بها ، أن زينون كان معروفا فى أثينا ، وأن الأثينيين كانوا يحبونه ، ولنذكر القرارين اللذين اقترعوا عليهما تقديرا له ، ودفنه فى الكيراميكوس .

أما كيفية موته فكانت على هذا النحو : بينما كان خارجا من المدرسة عثر ، فوقع وانكسرت أصبع قدمه . فضرب الأرض بجمع يده ، وهو يردد هذا السطر من الـ Noibe :

« إنى آت ، إنى آت »

« فلماذا تنادينى ؟ »

ثم مات على الفور فى مكانه وقد كف عن التنفس (٥١) .

العلم الرواق والفلسفة الرواقية :

بدأ زينون يعلم فلسفته فى أثينا ، فى رواق سمى بالرواق ذى الرسوم ، لأنه كان قد زين بالرسوم حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد بريشة بوليجنوتوس « مخترع فن الرسم » ، من أهل تاسوس Thasos . وكان الشعراء قد اعتادوا أن يتخذوا من ذلك الرواق ملتقى لهم ، والراجح أنه كان مفتوحاً لكل من كانوا يريدون أن يجتمعوا فيه . ثم كان اتخاذ زينون له مكاناً يعلم فيه فلسفته سبباً فى أن سميت مدرسته « بالرواق » ، وفى أن سمى أصحابه بالرواقيين .

ومن العسير أحيانا أن يميز الإنسان فى الفلسفة الرواقية بين ما قاله زينون وبين ما أضيف بعد ذلك على يد كليانتيس Cleanthes وغيره (٥٢) . والذى يظهر لى أن زينون شرح أصول الآراء وأمهاتها ، وأنه من غير شك مؤسس هذه الفلسفة ، وعلى مر القرون أدخلت عليها تغييرات كثيرة ، وإن لم تكن ذات بال . ويمكن فى الجملة توضيح أقوال ماركوس أورايليوس بذكر شواهد مما خلفه زينون من شذرات .

يقسم زينون الفلسفة ثلاثة أقسام كبرى : الطبيعيات ، والأخلاق ،

والمنطق ؛ والطبيعيات عنده أساس المعرفة ، والمنطق أداتها ، والأخلاق غايتها .

ومنطق زينون مستمد من آراء انتستنيس ، وديودورس كرونوس ، أعنى أنه مستمد من تلك الآراء التى سبق إليها الكلبيون والمجاريون ، إلا أن هذا المنطق تطور تطورا مستقلاً فى اتجاهات شتى ؛ فأدى مثلا إلى إحساس أعمق بالمسائل النحوية ، ويمكن القول بأن علم النحو اليونانى من وضع الرواقيين إلى حد كبير . وقد واصل خريسيپوس عمل زينون فى ميدان النحو ، ثم أكمله ديوجنيس البابلى وكراتيس ، من أهل مالوس [٥٣] . وللمنطق فروع أخرى ، خطابية وجدلية . ونظرية المعرفة أيضا عند الرواقيين نظرية مبتكرة ، فكانوا يقولون إن المعرفة تنال مما ينطبع فى أعضاء الحس ، وعلى الإنسان أن ينظر فى انطباعات الحس نظر المتأمل البصير حتى لاتجرفه « الخيالات » [٥٤] .

أما الطبيعيات الرواقية فكانت مزيجا من المادية والقول بوحدة الوجود . وكان الرواقيون يتصورون وجود قوى أو توترات فى كل شئ ، ممتدة بامتداد المادة ، وهذه التوترات هى السبب فيما يقع فى العالم من انبساط وانقباض . وقد وقع الرواقيون فى المفارقات أو المبهمات التى وقع فيها الأبيقوريون ، لأنهم كانوا يسلمون بوجود النفوس ، وإن قالوا إنها مصنوعة من المادة ، من ضرب من المادة ألطف من مادة الأجسام المحسوسة ؛ وإذن فهى فى نظرهم جسمانية لا روحانية .

والغالب على الرواقيين العناية بالأخلاق ؛ وقد فصّلوا ما ذهب إليه سقراط من أن الفضيلة علم ، وقالوا إن الخير الحقيقى يتلخص فى أن يعيش الإنسان على نحو يتفوق مع العقل أو مع الطبيعة ، ويقتضى هذا معرفة كافية بالطبيعة (الطبيعيات والإلهيات) . وتعاليمهم العلمية مستمدة من أفلاطون أكثر مما هى مستمدة من أرسطو ، ولذا ينقصها الوضوح ، فجاءت مختلطة بعض الشئ . فقد أضلهم مثلا ما كان يقول به أفلاطون من تقابل بين العالم الأكبر والعالم الأصغر * فجعلوا للتنبؤ شأنا كبيرا ، واتبعوا فى ذلك المأثورات اليونانية القديمة ،

* العالم الأكبر هو الكون كله ، والعالم الأصغر هو الإنسان ، وعلى أساس التقابل بينهما يمكن التنبؤ . وفكرة أن الإنسان عالم أصغر موجودة عند غير واحد من فلاسفة الإسلام . (المترجم

فأثبتوا بهذا أنهم أقل بكثير من الأبيقوريين فى التحرر الموروث .

ونبذ الرواقيون المذهب الذرى . وإن لم يؤد بهم هذا إلى أن يعتبروا الجوهر الذى يتكون منه العالم غير مادى . فكل شئ عندهم يتألف من العناصر الأربعة بحسب ترتيبها فى نصيبها المتزايد من اللطافة : الأرض . والماء . والهواء ، والنار . والإله نفسه مادى فى نظرهم . وكذلك العقل ، سواء أكان عقل العالم أم العقل الفردى الذى يشبه « جزءا منفصلا من الإله»(٥٥) . وهو يشبه أيضاً ضربا من النسمة الحارة . والنفوس عندهم نارية ، وفى آخر كل دور كونى يقع احتراق يشمل العالم كله ، فيرده إلى النار الإلهية ، وقد يحدث بعد ذلك خلق جديد(٥٦) .

إلا أن هذه الآراء فاسدة مضطربة تكونت فيما بعد ، ولا يصح أن نبادر فنعزوها إلى المتقدمين ، والنقطة الأساسية . منذ أيام زينون . هى أن العالم مكوّن من مادة وعقل ، وهذان ليسا سوى مظهرين لحقيقة واحدة ، فلا عقل بلا مادة ، ولا مادة بلا عقل . وبعبارة أخرى ، الإله قوة سارية فى كل شئ ، إلا أنها قوة لا يمكن أن تنفصل عن جميع الأشياء . وليفهم القارئ ذلك إن استطاع ! وبالجملة لم يكن مذهب الرواقيين أقل مادية من مذهب الأبيقوريين ، وإن كان أقل منه حظا من الصبغة العقلية .

والأخلاق هى ذروة المذهب الرواقى ومجده الخالد . فالخير الأعظم عند الرواقيين هو الفضيلة . والفضيلة تتلخص فى أن يعيش الإنسان معيشة تتفق مع الطبيعة أو العقل . والفضيلة هى الخير الوحيد ، والرذيلة هى الشر الوحيد ، وكل ما عدا ذلك ، من فقر ومرض ، وألم وموت ، شئ لا يصح أن يؤبه له . والإنسان الفاضل الذى لا يمكن أن يسلبه أحد فضيلته ، بمنأى عن أن يناله شئ من المتاعب . لأنه إذا رجع إلى نفسه وتبين أن معظم ضروب البؤس عبارة عن تصورات . فإن فضيلته تؤتيه الاكتفاء الذاتى ، وعدم القابلية للتأثر ، والخلاص من الألم . وهذه الطمأنينة شبيهة بما عند الأبيقوريين . وإن كانت أقل خمولا وأكثر شجاعة (أو صارت كذلك فى العصور الرومانية) . ولا يكفى الإنسان أن يحتمل ويكبح جماح نفسه . بل يجب عليه أن يكون جريئا .

ومما ترتب على مذهب الرواقيين ، أنه يجب على الحكيم أن يحصل ما يمكنه من المعرفة ، لأنه لابد له من أن يعرف الكون كى يعيش على نحو يتفق مع الطبيعة . ومن المؤسف أن معظم الرواقيين قنعوا فى هذه الناحية بعلم طبيعى ناقص كل النقص ، فلم يتوفر لديهم حب الاستطلاع العلمى . وإذا كان المذهب الرواقى قد سما بالقلب ، فإنه لم يرهف من حد العقل .

وقد قبل الرواقيون فكرة العناية الإلهية وظنوا أن أساليبها يمكن أن تعرف عن طريق التنبؤ . وهذان الأمران مثالان جيدان يبينان تناقضهم ، وهو تناقض يرجع إلى نقص فى التدقيق العلمى وقلة التحمس فى محاربة الأحاسيس الموروثة .

وأكثر ما يذكر من مصنفات زينون التى لم تصل إلينا رسالته فى السياسة ، وإذا أخذنا بما يقوله بلوتارك فإن هذه الرسالة كانت ردًّا على جمهورية أفلاطون . ومهما يكن من شئ فإن الرواقيين عنوا بالسياسة ، فكانوا من هذه الناحية متفوقين عن الأبيقوريين الذين دعاهم تعلقهم بالسكينة إلى اعتزال السياسة . أما الرواقيون فقد أحسوا بأن من واجب الإنسان أن يأخذ بنصيبه الكامل فى حمل الأعباء السياسية ، وهذا يفسر لنا نجاح المذهب الرواقى فى ميدان القانون والإدارة لدى الرومان .

وأطرف مميز وأجمله فى الأخلاق والسياسة عند الرواقيين ، شعورهم بالأخوة أو بالمشاركة لا بين أهل مدينتهم أو بلادهم فحسب ، بل بين أهل العالم كله . وقد تخلصوا . بفضل تأثير الانقلاب الهائل الذى نجم عن فتح الإسكندر للدنيا ، من تقليد من أقدم التقاليد اليونانية وأقواها ، ونعنى به الروح المتركزة حول المدينة أو الإقليم ، على نحو ما كان ذلك سائدا فى العصر الهيلينى ، وأصبحوا ممثلين لفكرة الوطن العالمى لأول مرة فى التاريخ . ويقول بلوتارك . إن شخص الإسكندر وما قام به كان وراء ما يحلم به زينون . وليس هذا صحيحا تماما . فإن هذه الفكرة لم تبعثها فى نفس زينون إمبراطورية الإسكندر (التى كانت تتداعى) بقدر ما بعثتها فكرة الإسكندر نفسه عن وحدة النوع الإنسانى ، فجعل زينون من تلك الفكرة الفردية نظرية فلسفية[٥٧] .

ونظرية وحدة النوع الإنسانى (إجماع النوع الإنسانى) كانت أحد مصادر القانون الرومانى ، أو أحد مصادر ما يسمى قانون جميع الأمم ، أو قانون الطبيعة[٥٨] . ومن جهة أخرى فإن تلك الفكرة كان يمكن (كما حدث فعلا) أن تؤدى إلى تبرير آراء شائعة ، وإن تكن فاسدة ؛ فإذا آمن الناس جميعا بالتنبؤ ، أفلا يكون من الأحكم والأقل ضررا أن يشاركهم الإنسان فى اعتقادهم ؟ على أن القيمة السياسية للمذهب القائل بالوطن العالمى قد راقت الرومانيين ، وإن كان من شأنها أن تنقلب بسهولة صورة هادمة مخربة . والفكرة القائلة بأن جميع الناس إخوة يمكن أن تعتبر نظرية خطرة ، وقد عمل على تقويتها فيما بعد النصارى الأولون ، وكانت أحد أسباب الاضطهادات التى عانوها .

أما نحن الذين ننظر من مسافة بعيدة فإننا ندرك أن الأخلاق الرواقية ، فى الجملة ، وما فيها من فكرة الوطن العالمى خاصة ، كانت تقدما عظيما ، تقدما بلغ من العظمة إلى حد أن كل ما كان يتحقق منه كان لايزال يهدم أو يتعرض للخطر مرة بعد مرة . ونحن نستطيع أن نقدر ذلك تقديرا أشد من تقدير الناس له فى أى عصر سابق ، بسبب التجارب المروعة والكوارث الفظيعة والشهوات الجامحة فى عصرنا هذا[٥٩] .

ومن سوء الحظ أن الرواقيين قبلوا ، فى خفة شديدة ، كل ضروب الخيالات الفيثاجورية والهيراكليتية والأفلاطونية ، فقلت ثمرة نظرياتهم الأخلاقية ، لأنه لم يكن يصاحبها إلا علم ضعيف بالكون ، وانضمت إليها ديانة تستند إلى التنجيم . ومع ما اشتملت عليه من بواعث روح المحبة . كانت ذات صبغة مجردة ونظرية إلى حد أنها لم تلائم عامة الناس من غير المثقفين ، وهؤلاء هم الغالبية ؛ فانتهى المذهب الرواقى إلى أن صار عقيدة مجردة من الطقوس والمعجزات ، فتركت العيون جافة والقلوب باردة ، ولم تستطع أن تنافس الديانات ذات الطقوس ، والأمور الخارقة للعادة ، والتى كانت تعزى النفوس رغم أنواع البؤس التى لا نهاية لها ، وتعد متبعيها بالنجاة والخلاص وسط المخاوف ، فاقترنت

الأخلاق الرواقية بعلم ردىء وديانة ليس فيها حرارة ، وكانت آخر معقل من معاقل الوثنية أمام النصرانية ! فلا ندهش لإخفاقها ، بل ندهش لذيوعها وقبول الناس لها بعض القبول .

موجز تاريخ المدرسة الرواقية :

تكونت الفلسفة الرواقية كلها أيام زينون ، وقبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ولنقص خبر تطورها بعد ذلك قصصا موجزا ، لأنا لانستطيع أن نعرف قيمة البذر إلا بعد أن نرى كيف نبت ، ونشاهد براعمه وزهوره وثماره .

خلف زينون فى رياسة المدرسة تلميذه كليانتيس ، من أهل أسوس (النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد) ، وقام على أمرها من ٢٦٤ إلى ٢٣٢ ق. م.)[٦٠] . وجاء بعده خريسيبوس من أهل سولوى (فى النصف الثانى من القرن الثالث) ، وزينون الطرسوسى (ح ٢٠٨ إلى ١٨٠ ق . م.) وديوجنيس السليوكى (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) ، وهو الذى حمل المذهب الرواقى إلى روما سنة ١٥٦ — ١٥٥ ق . م[٦١] ، وأنتياتروس الطرسوسى وبنايتيوس الرودسى (النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد) .وهذا الأخير هو الرئيس السابع للمدرسة ، وقد عاش حينا من الزمان مع پوليبيوس (النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد فى روما ، وأتم ما كان قد شرع فيه ديوجنيس من إدخال صفوة الرومان فى المذهب الرواقى ، واستقر أكبر تلاميذه ، وهو پوسيدونيوس من أهل أفاميا (النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد) فى رودس ، وهناك استمع شيشرون إلى محاضراته سنة ٧٨ ق . م .

وكان هؤلاء الرجال فلاسفة ورؤساء للمدرسة . وإذا كانوا لم يغيروا المذهب الرواقى تغييرا جوهريا ، فإن كلا منهم مضى فى بحوثه الخاصة . وكان كليانتيس شاعرا ، وكريسيبوس منطقيا ونحويا (ويظهر أن ما أضافه إلى المذهب الرواقى كثير ، حتى قيل إنه « لارواقية بدون كريسيبوس »)[٦٢] ، واهتم ديوجنيس

البابلى بالنحو وعلم الآثار ، والتنبؤ ، وعنى بنايتيوس خاصة بالأخلاق ، وكان بوزيدونيوس جغرافيا وفلكيا .

وليلاحظ القارئ أن كل هؤلاء الرواقيين الأول من غربيّ آسيا[٦٣] ؛ فالمؤسس ، زينون ، من قبرص ، وثلاثة آخرون من قليقية[٦٤] ، (هم خريسيبوس من أهل سولوى ، وزينون وأنتباتروس الطرسوسيان)، وبوسيدونيوس من أفامية على نهر الأورنط ، وديوجنيس من سليوكيا على نهر الدجلة . وهناك ثلاثة آخرون كانوا أقرب إلى البحر الإيجى وإلى العالم اليونانى الحقيقى وهم : كليانتيس المنسوب إلى أسوس Assos (قريبا من لسبوس Lesbos) . وأريستون المنسوب إلى خيوس وبنايتيوس الرودسى . فالآراء الرواقية ولدت فى آسيا ، وكملت صورتها فى أثينا ، وبلغت نضجها وصارت ذائعة مقبولة فى روما .

وعلى حين أن المذهب الأبيقورى بلغ ذروته ونهايته أو كاد ، على يد لوكريتيوس (فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد) فإن نمو المذهب الرواقى كان أبطأ وحياته أطول ، ويمثله فى صورته المتأخرة ثلاثة فطاحل هم : سينيكا القرطبى (النصف الثانى من القرن الأول للميلاد) وإبيكتيتوس Epictetos (النصف الأول من القرن الثانى) وماركوس أوريليوس انتونيوس (النصف الثانى من القرن الثانى للميلاد)[٦٥] . ومن الطريف أن هذا الإمبراطور العظيم أنشأ فى أثينا أربعة كراسى للفلسفة فى سنة ١٧٦ م ، لتمثيل المدارس الأربعة : الرواقية والأبيقورية والأكاديمية والمشائية ، وهذا يدل على كرم النفس والتسامح ، ويعلل بقاء هذه المدارس الأربع دون غيرها فى أثينا فى آخر القرن الثانى الميلادى[٦٦] . وهكذا عاش أفلاطون وأرسطو وأبيقورس وزينون حتى آخر أيام الوثنية ، ثم دسهم فى التراب قرونا انتصار المسيحية ، ولكنهم لايزالون أحياء حياة قوية جداً إلى اليوم .

هوامش الفصل الثالث والعشرون

(١) ولد ديوجنيس فى المدة ما بين ٤٠٠ و ٤١٢ ق . م على التقريب ، فى سينوبى ، قرب وسط الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، ومات فى كورنثيا عن سن عالية جداً ، حوالى ٣٢٥ — ٣٢٣ قبل الميلاد .

(٢) تفضل زميلى الأستاذ G.H. Chase بجامعة هارفارد بأن كتب إلى (فى ١٣ فبراير سنة ١٩٥١) أنه يرى أن أحسن ترجمة فى نظره للعبارة اليونانية وهى : «تزييف العملة» ، معنى كلمة paracharattein اليونانية هو : « النقش على نحو غير صحيح » . ويقول الزميل : « وعلى هذا فإنى أميل إلى الظن بأن والد ديوجنيس وقع فى المتاعب لطبعه عملة مدينة سينوب على صورة غير الصورة المقبولة رسمياً ، لا لأنه كان يعيد طبع المسوح منها » ، على أنه يمكن أن تعتبر العملة « مزيفة » عند فريق ، ولا تعتبر مزيفة عند الفريق الآخر .

(٣) يقال إن كراتيس كان تلميذا لبريسون Bryson قبل أن يتبع ديوجنيس . وهذا حق ، لكن بريسون هذا كان هو بريسون المنسوب إلى أخايا Bryson of Achaia لا بريسون العالم الرياضى الذى كان من أهل هيركليا . Bryson of Heraclea .

(٤) بريسون هذا هو غير شخصين يسميان باسمه ، قد ذكرناهما فى الهامش السابق . واسم بريسون لم يكن نادراً ، إذ يتكلم يامبليخوس Iamblichos (فى النصف الأول من القرن الرابع) فى كتابه عن حياة فيثاجورس (فقرة ١٠٤) عن تلميذ سابق يحمل هذا الاسم . وتنسب إلى رجل يسمى بريسون رسالة فى الاقتصاديات ، وهو مؤلف من أتباع المذهب الفيثاغورى الجديد ، وقد نبغ فى الإسكندرية أو فى روما فى القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد . وقد نشر هذه الرسالة مارتين بليسنر Martin Plessner (مجلة Isis مجلد ١٣ ص ٥٢٩ (١٩٢٩ — ١٩٣٠) . فإذا رجعنا إلى بريسون الذى نتكلم عنه الآن ، وهو ابن ستيلبون ، فإننا نقول إنه يجوز أن يكون أبوه هو ستيلبون المشهور الذى كان ثالث رئيس للمدرسة الميجارية ؟ وستيلبون هذا (من ٣٨٠ إلى ٣٠٠ ق . م . تقريباً) كان قد تأثر بديوجنيس السينوبى كما تأثر بأقليدس الميجارى Eucleides of Megara ، وقد نالت المدرسة الميجارية فى أيام رئاسته لها صيتاً كبيراً ، ولكن ذلك كان نهاية حياتها .

(٥) راجع كتاب F. Charles-Roux بعنوان Bonaparte, gouverneur d'Egypte (بباريس ، دار نشر Plon ١٩٣٥) [مجلة Isis المجلد ٢٦ ، ص ٤٦٥ — ٤٧٠ (١٩٣٦)] .

(٦) وتيمون بن تيمارخوس ، من أهل فيلوس (إلى شمال شرق البيلوبونيز) وهو أيضاً من أسرة فقيرة ، وبدأ حياته راقصاً ، ودرس على ستيلبون الميجارى ثم على پيرون ، وقد حوله پيرون إلى مذهبه . ولما كان قد اضطر إلى مغادرة إيليس ، فإنه زاول مهنة المعلم السوفسطائى فى البلاد المحيطة بهيليسبونت Hellespont وپروبونتيس Propontis . وبعد أن جمع ثروة آثر الحياة فى أثينا ، وفيها عاش إلى أن مات فى سن عالية جداً . وأخص ما يذكر بسبب أشعاره التهكمية التى انفرد بنوع منها اختص به Sillio .

(٧) وفى رواية قديمة أن بيرون سئل بعد موته : « هل أنت ميت ياپيرون ؟ » فأجاب : « لاأعرف » .

(٨) هوأركيسلاوس البيتانى Arcesilaos of Pitane (من مقاطعة أيوليس Aiolis) وكان تلميذاً لأوتوليكوس البيتانى Autolycos of Pitane الرياضى ، ثم ذهب إلى أثينا ، وفيها تتلمذ ليشوفراستوس وپوليمون وكرانتور ، ثم خلف كراتيس فى رياسة الأكاديمية .

(٩) كارنياديس البرقاوى هو الذى أدخل مذهب الشك فى مدينة روما سنة ١٥٥ ق.م. وقد طلب كاتو Cato من مجلس الشيوخ فى روما أن يرسل هذا الرجل الخطر الذى أفسد الشاب الرومانى إلى بلده أثينا . (وفى راويات أخرى أنه عاش فى القرن الثالث — المترجم) .

(١٠) هوأينيسديموس من أهل كنوسوس Ainesidemos of Cnossos ، وله كتاب لم يصل إلينا ، كان أحد المصادر التى اعتمد عليها سكتوس أمبريكوس (النصف الثانى من القرن الثانى للميلاد) .

(١١) كان كاساندروس وصيا على عرش مقدونيا من سنة ٣١٦ إلى ٣٠٦ ق . م . ثم صار ملكاً من سنة ٣٠٦ إلى ٢٩٧ق.م. وهوالذى أسس مدينة تسالونيكا (سالونيكا) .

(١٢) استعملنا فى وصف هذا النقد كلمة anticlerical (أى المضاد لطائفة رجال الدين) عن قصد ، وهى تدل على رد فعل لابد أن يحدث فى كل بلد يميل فيه رجال الدين إلى إساءة استعمال سلطانهم ومزاياهم . وكان القسس فى معابد وأماكن مقدسة لاعدد لها فى كل بلاد العالم الإغريقى يتمتعون بقدر كبير من السلطان . ولما كانوا آدميين فقد طمحوا إلى سلطان وثروة أكبر مما كان لهم . وصارت لهم مصالح لابد أن يحموها ويوسعوا نطاقها ، وهم بفعلهم ذلك لم يستطيعوا أن يتفادوا خلق أعداء لهم .

(١٣) انظر كتاب Diogenes (الباب العاشر) ، وكتاب Epicurus, the extant remains تأليف Cyril Bailey (باليونانية والإنجليزية ٤٣٢ صفحة ، أكسفورد ١٩٢٦) ، وللمؤلف نفسه كتاب : The Greek atomists and Epicurus (٦٣٠ صفحة ، أكسفورد ١٩٢٨ [مجلة Isis ، المجلد ١٣ ص ١٢٣ — ١٢٥ (١٩٢٩ — ١٩٣٠)] .

وراجع كتاب Marie Jean Guyau (١٨٥٤ — ١٨٨٨) ، وعنوانه :

La morale d'Epicure et ses rapports avec les doctrines contemporaines.

(٢٨٥ صفحة ، باريس ١٨٧٨ ، الطبعة السابعة ١٩٢٧) . وكتاب Benjamin Farrington وعنوانه : Science and Politics in the Ancient World (٢٤٤ صفحة ، نيويورك طبعة Oxford University Press ١٩٤٠) [مجلة Isis ، المجلد ٣٣ ، ٢٧٠—٢٧٣(١٩٤١—١٩٤٢)] .

(١٤) كان نوسيفانيس ، من أهل تيوس ، قدتخرج على يد پيرون الإيلى ، وربما كان ذلك أيام اشتراكهما فى حملة الإسكندرية الأسيوية ، وصار نوسيفانيس فيما بعد من القائلين بالمذهب الذرى ولكنه خالف ديموكريتوس فى أنه أصر على وجوب أن يأخذ العالم بنصيب فى الحياة العامة .

(١٥) هم نيكليس ، وكان هو الأصغر ، خيريديموس Chairedemos وأرستوبولوس ولاأعرف فيلسوفاً آخر من أتباعه إخوة ثلاثة له ، سوى أبيقورس .

(١٦) وكانوا جميعاً من أهل لامبساكوس ، أو من المقيمين فيها .

(١٧) أو بستانياً ho cepos .

(١٨) ديوجنيس هذا كان يسمى ديوجنيس الأوينواندا Diogenes of oinoanda ولايعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، وكانت أوينواندا أرضاً إلى شمال لوكيا ، فى جنوب غربى آسيا الصغرى . وقد نشر نقشه فى المكتبة التويبنرية Teubner على يد Johannes William ، بعنوان : Diogenis Oeinoandensis Fragmenta (١٥١ صفحة ليبزج ١٩٠٧) .

(١٩) ونحن نجعل لكلمة distribute (= يوزع) هنا المدلول المألوف عند قدماء أصحاب المطابع ، فقد كانوا يفرقون الحروف التى استعملت فى طبع نص ، ويوزعونها على « خانات » صندوق الحروف لكى يمكن استعمالها فى طبع نص آخر .

(٢٠) هذه نقطة غامضة جداً ، لا أزعم أنى أفهمها . راجع كتاب Bailey المسمى The Greek Atomists and Epicurus ملحق ٥ ص ٥٨٠ — ٥٨٧ ، وذلك فيما يختص بالعلاقة بين ذلك العنصر « الذى لايمكن وصفه » وبين « العقل » .

(٢١) وبعد ذلك بقرون قليلة كان هناك ما دعا الشاعر أوفيد (من ٤٣ق . م. إلى ١٨م) لأن يردد هذا المعنى قائلا : من أحسن الاختفاء عن الناس عاش عيشة طيبة Tristium lib. III, el. IV, 1, 25 وهذه لا تزال نصيحة طيبة فى أيامنا ، ولكن حاجة الناس فى القرن الرابع قبل الميلاد ، أو فى القرن الأول ، كانت أشد من حاجتهم إليها الآن ، على الأقل فى البلاد المتمدينة .

(٢٢) Diogenes Laertios X, 1.

(٢٣) كتب أندريه جيد فى يومياته ، بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٠٦ م هذه الملاحظة : « لاشك أن الغرض الخفى من الأساطير كان هو الحيلولة دون تقدم العلم » . وهذا مبالغة فى بيان الحقيقة ، لأن الغرض من خداع العامة وتضليلهم لم يكن عند أصحابه عن قصد وتدبير بقدر ماكان شيئاً يأتونه وهم لايشعرون . وأكبر فضل لأبيقورس هو أنه كشف عن هذا الغرض وحاربه .

(٢٤) هذا الخطاب المعن فى الطول قد ذكره بأكمله ديوجنيس اللائرسى X, 122-I35 ، وهو خلاصة جيدة للأخلاق الأبيقورية . ونحن نقتصر على اقتباس بدايته ، وهى تتناول أمر الآلهة ، وأبيقورس يتكلم بعدذلك عن خوف الموت ، فيعتبره خوفاً لامبرر له ، وعن الشهوات الحسنة والقبيحة ، وعن اللذة . . . إلخ . وقد ترجم هذا الخطاب R.D. Hicks فى مجموعة Loeb Classical Library ، ج ٢ (١٩٢٥) .

(٢٥) لا دليل على أن الأبيقوريين عملوا شيئاً يذكر لتعليم العامة الفقراء الأميين ، ولكن لم يكن أحد فى العصر القديم يعنى بالعامة . ولم يتيسر تنظيم التعليم العام إلا على يد الدولة أو الهيئات القوية . ولقد أدرك الأبيقوريون الحاجة إلى التعليم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينهضوا به ، ولم يحاولوه . وكانت نقطة الضعف الكبرى فى مذهبهم مابعثوه فى النفوس من عدم المبالاة ومن روح سلبية ، وبذا كانت تعوزهم روح الهمة .

(٢٦) راجع كتاب Murray الذى عنوانه : Greek studies (أكسفورد ،

دار طباعة كلارينـدون ، ١٩٤٦) ، ص ٨٥ ، وكتاب Farrington الذى عنوانه Science and Politics in the Ancient Worl d ص ١٥٩ .

(٢٧) وليذكر الإنسان بسكال Pascal فلماذا يهجر هؤلاء الرجال الرياضيات ؟ لأن الفلسفة أو الدين يستهويهم أكثر من غيره ؟ أم لأن عملهم الرياضى يكون قد انتهى ؟ ويستطيع الإنسان أن يقول إنهم لايهجرون الرياضيات ، بل الرياضيات هى التى تهجرهم .

(٢٨) الشهور اليونانية المذكورة فى هذه الفترة توافق ، على وجه التقريب الشهور الآتية : جميليون يوافق يناير وبوزايديون يوافق ديسمبر ، وميتاجايتنيون يوافق أغسطس .

(٢٩) Diogenes Laertios ، كما ترجم ذلك R.D. Hicks ، فى مجموعة Loeb Classical Library ١٩٢٥ .

(٣٠) هما البطلميوسان اللذان كان « أحدهما أسود والآخر أبيض » . وإذا فهمنا من كلمة أسود معناها الحرفى كان بطلميوس الأسود أول فيلسوف أسود (فى القرن الثانى ق . م .) ، وهذا مما يمكن تصديقه تماماً ، فقد كان الأبيقوريون إنسانيين إلى أبعد حد .

(٣١) Diogenes Laertios, X, 25-26.

(٣٢) فيدروس الأبيقورى (من ١٤٠ إلى ٧٠ ق. م) كان رئيس المدرسة الأبيقورية فى روما ، وقد أوحى أحد كتبه لشيشرون أن يكتب كتابه De natura deorum ، وقد عثر على شذرات منه فى هركولانيوم ، ونشرها Chrisitian Peterson (ص ٥٢ ، هامبورج ١٨٣٣) .

(٣٣) راجع أول الباب الخامس من كتابه De rerum natura ، حيث يقول : « لقد كان لعمرى إلها ، ياميميوس العظيم ! ذلك الذى كشف عن هذه القاعدة للحياة » . ك. ميميوس جيوس C. Memmius Gaius ، وهو الذى أهدى إليه لوكريتيوس هذه القصيدة . . : « كان سياسيا وخطيبا رومانيا (نبغ فيما بين سنتى ٦٦ ، ٤٩ ق . م .)

(٣٤) قد يجوز أن يكون كيلسوس هذا هو كيلسوس الذى نبغ فى الشرق الأدنى (مصر) ؟ ولكن ذلك ليس من المحقق ، وله الكتاب المسمى كلمة الحق Alethes logos ، وهو أول نقد منظم للنصرانية ، ولا يعرف إلا من رد أوريجين عليه (النصف الأول من القرن الثالث) .

(٣٥) راجع التفصيل الوافى فى كتاب Franz Cumont (١٨٦٨ - ١٩٤٧) وعنوانه Les religions orientales dans le paganisme romain (باريس ١٩٢٩) [مجلة إيزيس ، المجلد ١٥ ص ٢٧١ (١٩٣١)] .

(٣٦) فى كتابى المقدمة : Introduction ... ، جـ ١ ص ٢١١ جعلت زمن كليوميديس أقدم من زمنه الحقيقى (النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد) وزمنه بعيد جدا عن اليقين ، وربما كانت حياته تقع فى الفترة الممتدة من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد ، وفيما يتعلق بمحاربة كليوميديس لأبيقورس ، راجع كتاب Saul Lieberman الذى عنوانه : Hellenism in Jewish Palestine (نيويورك Jewish Theological Seminary

١٩٥٠) [مجلة Isis المجلد ٤٢ ص ٢٦٦ (١٩٥١)] .

(٣٧) كانت كلمة Apiqoros أو Epiqoros ، تستعمل زمن المشنا بمعنى « المفكر الحر غير المؤمن الذى يسخر من الربانيين ولا يؤمن ؛ بالآخرة». انظر المقالة التى كتبها برنارد هيللر B. Heller فى دائرة المعارف اليهودية Encyclopaedia Judaica مجلد ٦ (١٩٣٠) ص ٦٨٦ — ٦٨٨. وقد كتب لى صديقى الأستاذ جاندز Gandz (فى ١٥ فبراير ١٩٥١) أن كلمة « أبيقورى » فى الأدب العبرى لاتعنى المتمتع الشهوانى ، بل هى تدل على الكافر المنكر للدين . راجع أيضاً ملاحظاته فى مجلة Isis المجلد ٤٣ ، ص ٥٨ ، ١٩٥٢ .

(٣٨) مع مذاهب الإسماعيلية مثلا ، فى الشرق الإسلامى ، وراجع كتابى ، Introduction,... ج ٣ ص ١٤٩ . وتاريخ المذهب الذرى ، العلنى منه والسرى ، قد لحقه التعقيد البالغ ، لأن الآراء الأساسية فيه ليست يونانية فقط ، بل هى ترجع أيضاً إلى مذاهب الجاينا Jaina والبوذيين ، من أهل الهند . وفوق ذلك فإن مافى هذا المذهب من السرية وتعمد الخداع يثبط عزيمة الباحثين ويضللهم ، وهذا هو أسوأ ما فيه .

(٣٩) راجع كتاب G. Sarton بعنوان :

"Boyle and Bayle. The sceptical chemist and the sceptical historian," Chymia ٣ ، ص ١٥٥ — ١٨٩ (فيلادلفيا ، دار طباعة جامعة بنسلفانيا ١٩٥٠) .

(٤٠) فيما يختص بارنست ماخ راجع ماقاله أينشتين Einstein فى كتاب لاسحاق بنروبى Isaac Benrub عنوانه : Les sources et les courants de la philosophie contemporaine (باريس ، نشرة Alcan ، ١٩٣٣) ص ٤١٦ ، هامش ٣ .

(٤١) انتهى إلينا هذا الخطاب ضمن أوراق البردى التى عثر عليها فى هركولانيوم Herculaneum ورقة رقم ١٧٦ ، والترجمة لكوريل بيلى Cyril Bailey فى كتابه The Greek atomists and Epicurus ص ٢٢٥ .

(٤٢) pleumōn أو 'pneumōn ، وهى الكلمة التى استعملها بيتياس Pytheas (رئة البحر) . والكلمة بعيدة عن أن تكون واضحة المعنى ، ولكن يقصد بها التشهير ، ولا شك .

(٤٣) هاتان القطعتان المقتبستان نقلناهما عن ديوجنيس اللائرسى (X, 15;X, 22) ترجمة هكس (Loeb Classical Library — ١٩٢٥) .

(٤٤) كانت كيتيون فى موضع لارناكا Larnaca الميناء الأكبر فى قبرص ، على الشاطئ الجنوبى الشرقى . وزمان إنشاء هذه المستعمرة الفينيقية يرجع إلى ماقبل التاريخ . وإذا لم يكن يجرى فى عروق زينون دم فينيقى ، فمن السهل أن يكون قد تأثر بالمؤثرات الفينيقية (السامية) فى شبابه . ومحاولة إقامة الدليل على وجود أصل سامى لزينون وللمذهب الرواقى محاولة خرقاء لايمكن أن تقوم على أساس .

(٤٥) فى كتابى المقدمة ... Introduction ، ج ١ ص ١٣٧ ، أعطيت لميلاد زينون ووفاته سنتى ٣٣٦ و ٢٦٤ ق.م. على وجه التقريب ، مفترضا بذلك أنه مات عن اثنين وسبعين عاماً . ولو اختار الإنسان أشخاصاً كثيرين ممن تكلم عنهم ديوجنيس اللائرسى وغيره لاستطاع أن

يحصل على تواريخ مختلفة كلها متساوية تقريباً فى درجة الاحتمال ، ونستطيع أن نخلص من ذلك مطمئنين إلى أن المذهب الرواقى كان من ثمرات أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

(٤٦) Diogenes Laertios, VII, 2.

(٤٧) العبارة اليونانية أوجز وأرشق :

"nyn euploeca, ote neauageca "; Diogenes Laertios, VII, 4.

(٤٨) إذا كان قد تتلمذ لكزنيوكراتيس ، فلا بد أن يكون قدومه أثينا قبل سنة ٣١٥ – ٣١٤ ق . م . لأن كزنيوكراتيس مات فى هذه السنة . أما ستيلبون فكان يعلم وخصوصاً فى ميجارا وأما ديودورس كرونيوس وهو من أساوس (فى كاريا) فكان يعلم فى الإسكندرية فى عهد بطلميوس سوتر Ptolematios Soter ، على أنه يجوز أن يكون زينون قد لقيهم فى أثينا .

(٤٩) Diogenes Laertios, VII, 25

(٥٠) كل هذا يجب أن يقرأه الإنسان فى اللغة اليونانية ، لأن الألفاظ الأصلية طريفة فى بابها ، وإنى مضطر إلى مقاومة ميلى الشديد إلى ذكر نصوص يونانية أكثر مما ينبغى وقد لا يكون هذا ضروريا ، لأن من السهل قراءة كتاب ديوجنيس اللاترى فى المجموعة التى نشرها لويب (مجلد ٧ ؛ ١–١٦٠) و إحدى ملاحظات ديوجنيس (ج ٧ ، ٣٢) تحيرنى وهى : « يقال إن زينون كان من عاداته أن يقسم بنبات القبار ، كما كان من عادة سقراط أن يقسم بالكلب » ، والقبار نبات من نباتات إقليم البحر المتوسط ، واسمه فى اللغة اللاتينية مأخوذ من اسمه اليونانى الأصل Cappari وفى هذا شىء من الأدب الشعبى ، فهل كان اليونان يحبون القبار ؟

تفضل صديقى الأستاذ دلاتى A. Delatte ، فكتب لى من مدينة ليبج (فى ٢٦ مارس ١٩٥١) إجابة عن سؤالى هذا : قال إن زينون شأنه شأن سقراط ، والفيثاجوريين ، لم يكن يحب أن يقسم بالآلهة ، بل كان يؤثر أن يقسم بشىء غير ذى بال ، وكلما كان هذا قليل الشأن كان ذلك أفضل .

(٥١) Diogenes Laertios VII, 28 ، حسب ترجمة Hicks . أما Niobe فقد كتبها تيموتيوس من أهل ملطية (٤٤٦ إلى ٣٥٧ ق . م) ، وهو الشاعر والموسيقار الأثينى المعروف الذى زاد فى عدد أوتار القيثارة . والبيت الذى تمثل به زينون هو فى اليونانية هكذا erchomai; ti m'aueis

(٥٢) انظر كتاب A.C. Pearson الذى عنوانه The fragments of Zeno and Cleantes (٣٥٢ صفحة ، لندن ١٨٩١) ، باليونانية واللاتينية ومع شروح بالإنجليزية ، وشذرات زينون ١٨١ صفحة ، وشذرات كليانتيس ٩٥ صفحة . وهناك ٢٠٢ شذرة لزينون و ١١٤ لكليانتيس . وثم شروح يونانية مفيدة كل الفائدة . وهى ترجع إلى زينون وكليانتيس مباشرة .

(٥٣) وليلاحظ القارىء أن كل هؤلاء الرجال كان لهم إلمام باللغات الأجنبية ، فزينون من قبرص (إذا لم يكن من قليقية) ، وخريسيبوس من قيليقية ، وديوجنيس تفتحت مواهبه فى روما زمنا ، وكان كراتيس على رأس دار الكتب فى برجامه . والتنبه إلى المسائل النحوية يسهل كثيراً على الإنسان عندما يقارن لغته بلغة غيره .

(٥٤) فيما يختص بالمنطق الرواقي جملة ، راجع كتاب Antoinette Virieux-Reymond وعنوانه :
La logique et l'épistémologie des Stoiciens, leur rapports avec la logique d'Aristote la logistique et la pensée
(٣٣٨ صفحة ، طبعة chambéry : Lire ، ١٩٤٩) (مجلة إيزيس المجلد ٤١ ص ٣١٦ (١٩٥٠) .

(٥٥) هذه عبارة من عبارات المتأخرين: Epictetos, I, 14, 6; II, 8, 11) apospasma tu theu
ولكن الفكرة قديمة قدم آراء زينون .

(٥٦) هذه صورة جديدة للأسطورة القديمة القائلة بالعود الأبدى eternal return أو عودة الأشياء عوداً متكرراً ، وهى أسطورة يغلب أنها ترجع إلى أصل شرقى ، ولكن أذاعها فيثاجورس وأفلاطون وهى تعود إلى الظهور بين حين وآخر فى كتابات الفلاسفة والمؤرخين الذين يتنبأون .

(٥٧) وأحسن بحث فى هذا الموضوع هو الذى قام به تارن William Woodthorpe Tarn ، بعنوان Acad Alexander the Great and the unuity of Mankind أنظر (Proc. British) مجلد ٩ ص ٤٦ والصفحات التالية ، ١٩٣٣) . وقد بين تارن ، بيانا صحيحاً فيما أرى ، أن فكرة الإسكندر الأكبر عن وحدة النوع الإنسانى سابقة على مذهب الرواقيين ، وأنها ليست فكرة رواقية أضفاها بعضهم على تراث الإسكندر فيما بعد ، وقد أكد تارن آراءه هذه من جديد فى كتاب حديث له عنوانه ، Alexander the Great ، (كمبردج ، دار طباعة الجامعة ، ١٩٤٨) (مجلة إيزيس المجلد ٤٠ ، ص ٣٥٧ (١٩٤٩) .

(٥٨) إن معنى عبارة Law of nature أو natural law هو بوجه عام : القوانين العلمية (تمييزاً لها عن القوانين الإنسانية) ، وهذا هو على الأقل معناها منذ انشاء الجمعية الملكية (راجع Oxford English Dcitionary ، مجلد ٦ ص ١١٥) أو منذ ١٦٠٩ م حين كتب بيكون Bacon كتابه المسمى Advancement of learning . وبحسب الاستعمال الفرنسى للعبارة ذاتها حوالى ذلك الوقت نفسه (Pascal) كانت عبارة loi naturelle تدل على المبادئ الخلقية والآراء المتعلقة بالعدالة ، المستقلة عن القانون المكتوب ، المتقدمة على هذا القانون . فالفكرة اليونانية عن وحدة النوع الإنسانى كانت بالضرورة أقرب إلى المعنى الفرنسى لعبارة « قانون طبيعى » منها إلى المعنى الإنجليزى ، لأن اهتمام اليونان « بالقوانين الخلقية » كان أكبر من اهتمامهم « بالقوانين العلمية » ، ولم يكن عندهم فكرة واضحة عن القوانين بمعناها الأخير .

(٥٩) ولكى يتبين القارئ الخلاف الجوهرى فى هذا الموضوع فى أيامنا ، ليتأمل من جهة تلك الصورة التالية التى فصلها Wendell Willkie فى كتاب المسمى One World أى عالم واحد (نيويورك نشرة Simon and Schuster ، ١٩٤٣) ومن جهة أخرى كيف صارت كلمة Cosmopolitan سبة فى اللغة الروسية . فعند المحافظين المتشددين الذين يرفضون التفاهم لا يعتبر التسامح سوى ضعف فى الإيمان وعند الروس فكرة الوطن العالمى خيانة .

(٦٠) لابد من ذكر تلميذين لزينون أخذا عنه مباشرة ، وهما أريستون من أهل خيوس Ariston of Chios وهير يلوس القرطاجى. أما أريستون فكان كلبيا من كل وجه ، أكثر من أستاذه . كان يحتقر كل صور الثقافة ، وكان من أول الذين بالغوا فى تقدير قيمة علم الأخلاق (بالنسبة للمنطق

والطبيعيات)، وصارت هذه المبالغة طابعاً يميز المدرسة الرواقية كلها. أما هيرلوس فكان على عكس ذلك يجعل للمعرفة epistéme شأناً كبيراً . وحوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كان أريستون وأركيزيلاوس ، أحد فلاسفة الأكاديمية ، هما الفيلسوفين البارزين فى أثينا.

(٦١) جاء ديوجنيس هذا من سليوكيا على نهر الدجلة. وفى أيام رياسته للمدرسة كتب كراتيس المالوسى أول كتاب فى النحو اليونانى (لم يصل إلينا) ، وكان كراتيس أول مدير لدار الكتب التى أسسها فى برجامه Pergamon .

(٦٢) يجب أن يؤخذ هذا القول ، فيما أعتقد ، بالمعنى المادى ، لا بالمعنى الروحى ، فإن خريسيبوس كان ، بفضل كتاباته الغزيرة وقوة منطقه ، أكبر مدافع عن المدرسة الرواقية (ضد فلسفة الأكاديمية) كما كان هو المنظم للفلسفة الرواقية . وكان له من الشأن فى تقوية المدرسة الرواقية ما كان لشيوفرا ستوس من الشأن فى تقوية المدرسة الأرسطية . ورؤساء المدارس العظماء ليسوا مجددين بقدر أولئك الذين يساعدون فى توضيح الآراء الجديدة وشرحها .

(٦٣) هذا باستثناء هيرلوس القرطاجى ، كما هو بين ، فنحن لا نعرف من أين جاء ، وقد يجوز أنه ولد فى قرطاجة ، ولكنه كان تلميذاً لزينون الكيتيونى ، وعنه أخذ دون واسطة ، والأغلب أنه جاء من بلاد اليونان أو من غربى آسيا كغيره .

(٦٤) كانت قليقية أقرب أرض لقبرص ، وكان أسهل على السيميسين أن يركبوا البحر إلى قبرص من أن يسافروا إلى أكثر الأماكن فى داخل بلادهم ، لأن هذه الأماكن لم يكن يستطاع الوصول إليها إلا بعبور سلسلة جبال تاوروس . وكانت قبرص هى والشواطىء القليقية ، وشواطىء شمال الشام ، تؤلف وحدة جغرافية .وعلى هذا نستطيع أن نقول إن زينون وخريسيبوس الرواقيين ، بل بوسيدونيوس أيضاً ، جاءوا من إقليم واحد .

(٦٥) هذا يؤيد القول بأن الفلسفة الرواقية بلغت نضجها فى الدولة الرومانية ، لا فى العالم الرومانى فحسب ، بل فى مدينة روما . وكان ماركوس أوريليوس أحد أبناء هذه المدينة ، أما سينكيا الإسبانى وايبكتيتوس الفريجى Epictetos the Phrygian فقد نبغا فى روما .

(٦٦) وفى تلك الأيام كانت أثينا قد أصبحت أشبه بمدينة إقليمية ، ولكنها ظلت مركزاً للعلم والحكمة الوثنية . وكانت روما عاصمة الإمبراطورية ، أما أثينا فكانت هى المكان المقدس الظاهر الشأن .